بحث قناطر ارسطو

حسين مكي

تحت قناطر أرسطو

مطبعة « الجريدة » ـ بيروت

للمؤلف

في الأدب :

١ ــ « كتاب المئة » .

وهو مائة كلمة ، اختارها المؤلف ، من « النهج » ، وعلق على الكلمة المختارة ما تحتاج اليه من شرح الامام السيد محمد عبده . في « مطبعة العرفان » ، في صيدا ، سنة ١٩٣١ .

٢ ــ «المفكرة الريفية» .

الطبعة الاولى، معها «قصة الفردوس الارضي» . في «مطبعة الكشاف» في بيروت ، سنة ١٩٤٢ .

الطبعة الثانية ، معها «المراسلة المطرانية» و«مناظرة لغوية في حرفين من المفكرة» . في «دار الطباعة والنشر الشرقية» ، في بيروت ، سنة ١٩٤٥ .

الطبعة الثالثة ، معها «قصة الفردوس الارضي» و «المراسلة المطرانية» و«مناظرة لغوية في حرفين من المفكرة» . في «المطبعة العصرية» ، في صيدا ، سنة ١٩٥٤ .

٣ ــ « دفتر الغزل » .

الطبعة الأولى ، معها « الخصوصيات » و « الاخوانيات » . في « المطبعة العصرية » ، في صيدا ، سنة ١٩٥٢ .

في اللغة :

« كتاب الدقائق » .

نقود واصلاحات ، وقد نشر اول مرة في مجلة « المشرق » . في « المطبعة الكاثوليكية » في بيروت ، سنة ١٩٤٤ .

في القانون :

١ ــ « احكام الوقف » في الفقه والقانون .

(في ستة اجزاء) يحتوي المذاهب المعول عليها ، والفتاوى المعمول بها ، والشرائع والاجتهادات العثمانية واللبنانية والسورية المحدثة . الجزء الاول ،

في « المطبعة المخلصية » (صيدا) ، سنة ١٩٣٨ .

٢ ـ « الصلح الباطـل وردّه بدله » على الشرع الاسلاميّ ، والقانونين اللبنانيّ والفرنسيّ . في « مطبعة الكشّاف » ، في بيروت ، سنة ١٩٤١ .

٣ ـ « مجموعة القوانين الطارئة » .

عليها تعاليق للمؤلّف ، مسهبة . في « مطبعة الكشّاف » ، في بيروت ، سنة ١٩٣٩ .

في التأريخ :

« الأثارة التأريخية » .

يدور على مخطوط « للادهميّ » ، وعلى حوادث ونوازل لبنانية . وقد نشر اوّل مرّة في مجلة « المشرق » . في « المطبعة الكاثوليكية » ، في بيروت ، سنة ١٩٤٥ .

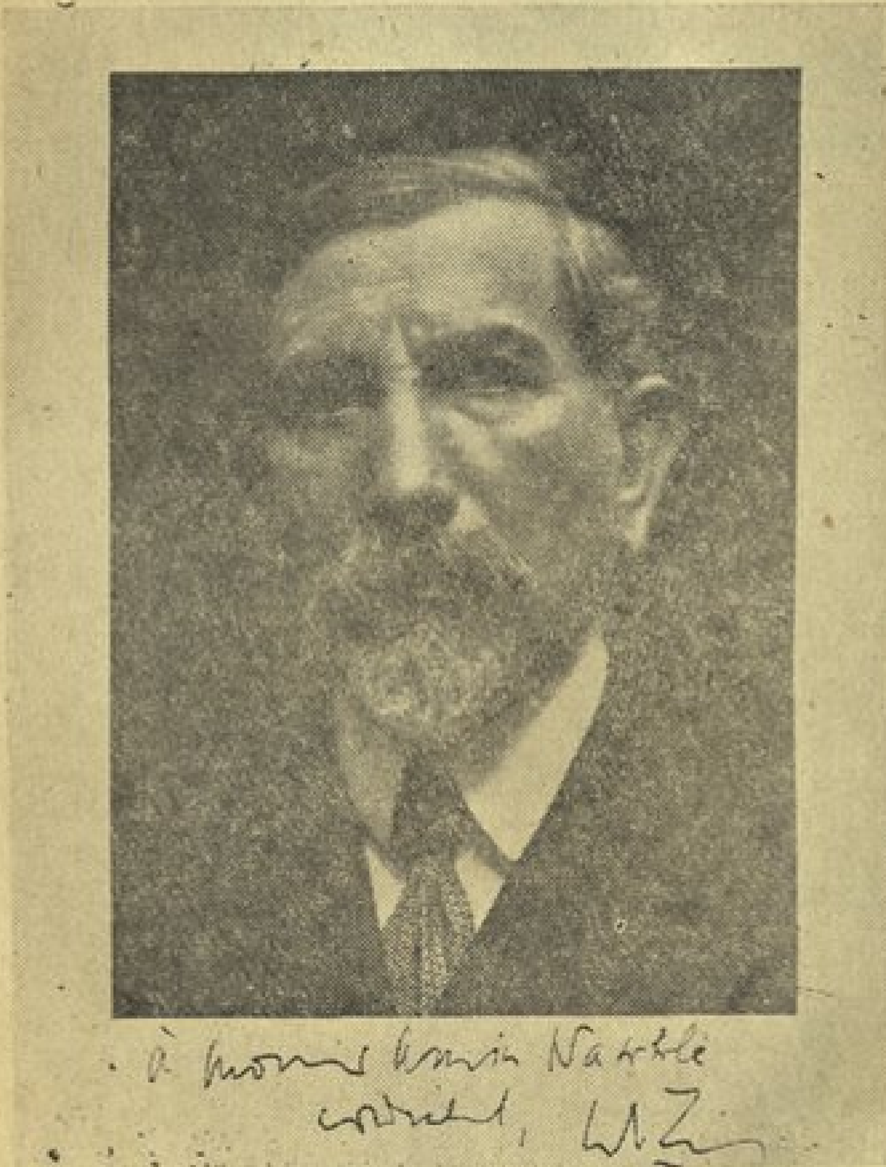
تحت قناطر أُرسطو

امين نخله

الطبعة الأولى

معها « حول القناطر » و « بين الكرة والطشت » وملحق

بيروت ـ سنة ١٩٥٤



كبير كتاب اوروبة : شارل موراس .

الى شارل موراس

ليس من العجب ، في شيء ، ان يقترن اسمك ، في هذا الكتاب ، باسم نابغة الطينة البشرية (أرسطو) ! فانك في مجد العقل حيث يباهي بك الجنس الفرنسيُّ اجناس الخلائق – دعْ انك، في ما اعرف، قد نشأتَ، مع أرسطو، في حوض ، ورويتما ، معاً ، من غيث ، وانتميتما في الاذواق، ومواجيد النفس ، ومذاهب النظر ، الى فرع واحد .

واضفْ ان هذا القلم، الذي في يدي – على كونه عربيّاً، من هذا الفجِّ المشرقيِّ ، من الارض – قد طالما استروح على مصنّفاتك نسيم الفكر ، والاحساس ...

فاذا كان لكتابي علاقة باسم « المعلّم الاوّل » ، من حيث احتفاله بالكتب ، وفرط انكبابه عليها ، وجعلها ، في باب التّحقيق والتّمحيص، كفّة ثانية ، قبالة التفكير الشخصيّ ، وكوني، في هذه القضيّة ، على مذهب ذلك القارىء العظيم،

فانه بالأجدر ان تقوم العلاقـة باسمك ، ها هنـا ، قيامها باسم صاحبك . اذ انّ كتابي يتّصل به بالتّسمية ، لا غير ، ويتّصل بك بالوجدان ، وخطرات البال !

لذلك يحمل هذا الكتاب صورتي وجهك ، وخطّ يدك ، الى الآفاق العربية .

امين



المؤلف
أيام كان يكتب فصول هذا الكتاب .

بين يدي الكتاب

كُتبت هذه الفصول في اصول الأدب ، وما ينبغي لحفظ نصابه ـ وفي اشيآء أخرى ، لا تعوزها المقدّمات ! ـ يوم تحرّكت في بيروت ، والقاهرة ، قضية النّمط ، بين الحديث والقديم ، وتوزيع القسط ، بين المعنى والمبنى .

ولقد نُشرت طائفة منها ، المرّة الاولى ، في جريدة « الأحرار » ، ثم تناولها فريق من اكابر اهل الصناعة ، ودار عليها اخذٌ وردٌ ، كان من حقّ القارىء ان يجد بسطهما في هذه الطبعة الأولى ، ولكن مادّتهما وافرة ، والمجال غير منفسح .

• • •

ويا حبّذا لو علم القارىء انّ ما سوف يأتي لنا ، من رأي ، ها هنا ، ونزوع عنه هناك ـ وعلى الخصوص حين تجيء المسألة الى الذوق ، والقاعدة ، وما في نحو ذلك ـ

١٤

هو الــذي عجب له المؤلّف ، نفسه ، قبــل ان يعجب له القارىء ــ والحمد لله ...

« بيروت ، في شهر آذار ، سنة ١٩٥٤ » .

بيت ارسطو هو بيت القارىء ...

افلاطون

قضية الاتصال في الأدب

في كفّة الغروب ، امس ، وقد مال ميزان النهار ، وغشي السواد الشفق ، كنت اسألهم الا يوقدوا المصباح في وجه الليل . بل ندع العتمة تسقط على مهل ، وتتلبّد . حتى اذا غمر السواد الجهات ، غرق عبث الحياة في الليل ، وسلم الامر ...

ثم اشرف من النافذة ، فاذا المدينة ، في جوف الليل ، قطعة واحدة ! خفي الشتات ، وتألفت الدقائق ، وامّحى الفضول . فلست ارى ، في المشهد الاسود المنطرح ، شيئاً ينهض ، ويتعالى ، الا ذوآبات الابنية . فهي تشمخ ، وكأن بعضها ، في ظنّ العين ، يمشي الى بعض . فتلتقي ، وتتساند ، بعد البياض الفاني ، والعبث المولّي ...

والليل فهرس البياض المنطفىء . ترى فيه العناوين الضخام ، لا غير ، وعفاء الله ، بعد ذلك ، على الحروف الضئال ، والتنقيط المنمنم ، في كتاب النهار ! فكأن الليل

يبتلع النوافل ، ولا يبقي الا على المتحتم ، من عنعنات الحياة . فان هذا العمود البعيد ، مثلاً ، والقائم تحت افق الشمال ، والذي لا تستطيع عيناك ان تتبينا حوله شيئاً ، هو عنوان طويل لبناية المسجد . ولقد خفيت المقالة ، وسلم العنوان — فان الفهرس مختصر جداً ...

. . .

وانا فى الادب ، اليوم ، على اعقاب جيل ، مال ميزانه ، وطفقت العتمة تتساقط عليه . فعما قليل تغمو نوافله ، وتبتلع توافهه ، ولا يسلم منه ، فى الغرق الاعظم ، الا العناوين الجديرة بالسلامة !

كنا فى « الباروك » (١) ، فى مطلع الصبا ، نجول بالضاحية ، حيث كان « لامرتين » يهبط على الينابيع ، بين الخضرة والفيء (٢) ، او نصعد فى الجبل ، حيث مرَّ جواد ابي الطيب (وعقاب لبنان وكيف بقطعها) (٣) ... فيقول أحدنا ، فى الرفقة : « ترى ايُّ شيء ، من هذا الريف ، قد لفت صاحبينا ، هذين !! » .

---

(١) — من بلاد الجبل ، فى لبنان ، وهي مسقط راس المؤلف .

(٢) — لامرتين فى تجويله فى الشرق ، سنة ١٨٣٣ ، قضى اياما فى ظهر الباروك ، والفريديس ، وهاتيك القرى .

(٣) — انظر همزية ابي الطيب (وهو فى الطريق الى دمشق ، لملاقاة ابي علي الاوراجي الكاتب) التي فيها يقول :

وعقاب لبنان وكيف بقطعها — وهو الشتاء — وصيفهن شتاء

وكنّا ، بعد ، لم تتعلم الحيرة فى الجواب ... فتنطلق الاجوبة فى افواه الرفقة ، كما يهتاج العشُ ! يقول واحدنا : « ان هذه البحيرات الصغيرة ، التي يبسطها النهر ، بين مرجين ، حيث يتمهّل فى جريه ــ وهي كأنها تنتظر ، الى اليوم ، عودة صاحب « البحيرة » اليها ... ــ قد افتُنُ بها لامرتين ، ولا ريب ! » . ويقول الآخر : « لا بدَّ لابي الطيب ــ وهو الذي لم يعرّج على الباروك ، فى طريقه الى دمشق ــ من ان يكون قد ثنى رأس فرسه ، فى بعض عقبات الجبل (وهو الشتآء ، كما يقول) واطلَّ على البساط الابيض الكبير ، الذي يُفرش لنا ، فى القرية ، ايام الثلج ! » .

كذلك كنّا نحسب ، فى الصبا الاول ، ان الدنيا تُبدأ بنا ! ويخيل الينا ان لامرتين كان عندنا ، فى الباروك ، اوّل امس ، وان ابا الطيّب كان اوّل من امس ، وان عطفات النهر ، وبسط الثلج ، معالم ثابتة على الزمن ، بذهابها ذهاب الباروك ، والينابيع ، والربوات ، والشجر ، بل ذهاب تلك الدنيا الصغيرة ، جميعاً ! فلما كبرنا عن الصبا (وقد كبرت الدنيا ، من يومئذ ، وصغرت قريتنا !) وكانت بسط الجمال الشتائيّ الابيض ، قد مدّت وطويت ، فى اختلاف الزمن ، الف مرة ، وعفت المروج ، والبحيرات التي على

النهر ، سلمت لنا الباروك ، باجمعها ، كأن لم يذهب منها شيء . بل انها بقيت لنا بنهر ، وجبل ، وضاحية ، كما كان عهدنا بها ، فى اول العمر ... ذهبت النوافل ، فى غرق الايام ، من ذلك الجمال « الباروكيّ » ، وسلم ما ينبغي له ! فلو مرّ فى رأس الجبل ، اليوم ، فرس ابي الطيب ، لثناه راكبه ، ووقف يجيل عينيه . ولو نزل لامرتين على الضاحية ، لآنس نعيماً ، وظلاً ، واخضراراً حبيباً ...

. . .

هكذا نقول لاصحابنا ، فى مشادّة العبث ، القائمة فى الادب ، بين قديم وجديد . فان الزمن يمسح النافلة ، ويبقى على المتحتم . وفى الادب لا يقال : قديم ، ولا يقال : جديد . فانما الادب كدّ على الحق ، وولـه بالجمال . تسقط عتمة الآباد الف مرة على الصنيع الفنيّ ، الذي غمس فى الوان الوله والكدّ ، وهو سالم ، معافى ، لا يأخذ منه الليل حرفاً واحداً . فالجيّد جيّد على كل عصر ، والتافه تافه ابداً !

ولقد سُبقنا الى الدنيا ــ كما ترى ! ــ وجآءها ناس ، كلفوا بالجمال والحق ، مثلنا ، وداروا حول لباب الاشيآء ، مثلما درنا . فكيف يسوغ لنا ، ونحن فى الطريق ، ورآءهم ، ان نقطع بيننا وبينهم ، ونقول : قديم ، ونقول : جديد ؟

ان الكدح القاسي فى صعيد الفكر ، والتضحية السمحة على مذبح الجمال ، والتنقيب فى بياض الصحيفة عن الدنياوات المنحجبة ، كلّ اولئك عرفه « بين الدخول فحومل ... » ، مثلاً ، ذلك الرصيف الجاهليّ القديم ! ألا لا يشمخن عليه ، اليوم ، بين منازه بيروت ، واحد من الشعرآء ... فانما طلب البلاغ الحرّ ، وقلب النسق فى الصنيع الفنيّ ، وابدال الوانه ، وصبّه على هوى الحياة القائمة ، وذوق الزمن الجاري ، قد نظر اليها الاساتذة ، الذين سبقوا الى العمل ، وايقظوا لها رأيهم . وهكذا يقال فى شيوع الخاطر من المستهلّ الى المقطع ، وفى تماسك الحسن ، الذي لا يبذل نفسه الاّ بعد مماطلة منه ، وفى الميسم المطبوع ، والنفَس الخاصّ ، وفى المعنى الذي يسكن المبنى ، ولا يمدّ ساقيه على بحبوحة اللفظ ... كلّ هذا كان من إغراض الاساطين فيهم ، يوفّقون اليه حيناً ، وينكصون عنه حيناً آخر ـ شأننا نحن بين التوفيق والنكوص ! فليس هذا الادب ابن يومه الحاضر ، حتى تُعدّ مطالب الحياة منه فى باب الاتيان بشيء جديد .

وعندي ، فوق هذا ، ان الاساتذة الموتى ، الذين سلكوا السبيل قبلنا ، وخرجوا من الدنيا ، فكأنهم مضوا ليفسحوا لنا المواضع ، لمن حقهم ان يطرقوا خواطرنا ، وان يرشفوا ،

فى الفاظنا ، قليلاً من الحياة ! فانهم ، رحمهم الله ، لم يبقَ لهم ، من سبيل الى الضيآء ، الا هـذه الحروف السود ، التي تضيء فيهنّ خواطرنا ...

هذا حبل الابد ، هيهات ان ينقطـع ! والادب بشريٌ (من نتاج اللحم والدم) فليس فى استطاعة احد ان يقطع هذا الحبل ...

موضوع الأدب

« بين الحادثة الشاذة والحادثة المبتذلة »

من قصص الكاتب الانكليزي الذائع الصيت ، اوسكار ويلد ، على موضوع الادب ، هذه القصة ـ وهي ، في باب التعريف بالادب ، وما ينبغي له ، نادرة النوادر ، قال :

« ـ كان في قرية ، من قرى الريف ، رجل فصيح ، مفوّه ، ذو كلام ما لحسنه نهاية . وقد احبّه القرويون لحكايات كان يركّبها لهم ، ويفصّل فيها ما يشآء . وكان كأهل القرية : يخرج على وجهه ، في الصبح ، فلا يعود من المروج ، وهاتيك الغيطان ، الا وقد امسى مجهداً ، مندلق النفس ، تكاد لا تتبعه رجلاه ! فاذا جلس القوم في محضرهم ، على العشيّة ، قالوا له : « يا فلان هاتِ » ، فيقول ، مثلاً :

« ـ اليوم رأيت ، في الغيضة ، حوريّة ناعمة ، تنفخ في

شبابة القصب . ورأيت طائفة من بنات المـآء يرقصن فى حلقة ، حولها !

« فيقولون له ــ : ايه لك فى هــذه الحكاية الحلوة ! ففصّل لنا من حوادثها ، ويحفظك الله !

« فيستأنف مضيّه ، يقول :

« ــ ورأيت ، عنــد ملاعب الموج ، فى الرمــل ، ثلاث خيلانات، يسرّحن، بامشاط من ذهب، شعرهن الاخضر ».

قال ويلد :

« ــ ففي بعض الايــام خرج صاحبنا من القريــة ، فى عنفوان النهار ، على غير عادته . فترآءى له ، حقاً ، هــذه المرة ، على الشط ، خيلانات ثــلاث ، يسرّحن شعَرهنّ ، ويمشطنه . ولمح عند الدغل ، حورية تنفخ فى القصب لبنات المآء ... ففزع كثيراً ، وامسك على ما فى صدره ! ولمــا تجمّع اهل القرية ، فى محضرهم ، تلك الليلة ، قال لهم :

« ــ اما اليوم فاني لم ارَ شيئاً ... » .

وهذه القصة رواها ويلد لاندره جيد ، يوم نزل ويلــد الى باريس ، وكان يسأل صاحبه ان يروي له عمّا صنع فى يومه . فيسوق اليه جيد ما يعرض له من جليل ودقيق ، بين التقلّب والمعاش ، فيقول ويلد :

« ــ تحدّثني بهذه التوافه ، فهــل انت تراها جديرة

بتحريك الشفة ؟...» •

ثم يقول :

« ــ نحن من دنيانا فى ثنتين : واحدة قائمة ، لا تحتاج الى الحديث عليها ، وهي هذه الماثلة بين يدينا ، والاخرى ، وهي دنيا الفن ، يجب ان يفاض فى التحدث بها ، وفى وصفها، ونعتها طويلاً ، كيما تنهض واقفة على قدميها !!» •

ثم افرغ ، هنا ، على مغزى ذلك ، قصة الفلاح اللئسن ، والحورية ، والخيلانات ، وبنات المآء •

• • •

من العجب ان يكون الادب مرآة الحياة ــ كما يقال ــ يراوح فيه كل احوالها ، وان يكون ، ثمة ، صعيداً منقطعاً عنها ، ينبغي له ما لا ينبغي لها • حتى ليستطاع القول ان الاخذ ، مثلاً ، بالحادثة اليومية ، التي تقع فى الحياة ، ليس فى شيء مما يلحق بالأدب • فكأن الصنيع الفنيّ والحياة كالزهرة والتراب : تنبت الزهرة فيه ، وتكون من محصّله ، ونتاج اشيآئه ، ثم تغدو ، وهي ليست منـه فى لون ، ولا شكل ، ولا طبيعة !

فالعمل الفنيُ الذي يُلتفت فيـه الى الحقائق الماثلة فى العيون ، ابداً ، ليس فى باب الابتداع شيئاً ! اذ ان الاخذ بالحادثة اليومية ، وجري المعتاد ، يفضي الى ادب دنيء ،

ولا ريب ! وليس ادلّ في ذلك من قيام النوع ، الذي يقال له « البطلي » ، وارتفاع قبته . فالذين صنعوا فيه ، وجآءوا بالبدائع ، لم يجعلوا وكدهم فى الحقائق المكررة على نهج واحد ، بل انهم صرفوا اقلامهم الى حقائق فذة ، لا تقع على رصفات الشوارع ، ولا فوق ادراج الفنادق ، كل يوم ، وجعلوها فى اتزان عادل ، بين طبع الحياة ، وطبع الفن .

وحين يقال : ان على الادب ان ينزل ساحة الحياة ، يضرب فى جهاتها الاربع ، لا يكون المعنى ان عليه ان يأخذ مادته من الحقيقة الوسط ، وهي التي تقع من سياق الحياة ، واتصال سردها !

ولقد فطن ستندال ، فى قصة « الاحمر والاسود » ، لهذه الدقيقة فى الفن . فانه تناول الموضوع ، هناك ، من بعض الانبآء ، التي تنشرها الجرائد ، فى باب الحوادث اليومية ، لكنه جرّده من ثوب الاعتياد ، وافرغ عليه ، من دواته ، الوان الفن ، حتى عادت القصة وهي من الاوابد الباقية على الزمن ، فى ادب اوروبة .

والذي يقال فى ستندال على قصة « الاحمر والاسود » ، يصح ان يقال فى الجاحظ على كتاب « البخلاء » . فان الجاحظ لم يخلق تلك الطائفة من المقترين ، واهل الشح ،

خلق حوآء وآدم ••• بل انما هو نقل هؤلآء من الحياة الى الصحيفة ، نقل صناع بارع ، يعرف كيف يحمل اليك الاشيآء ، وهي كأنها خُلقت من جديد ! بخلاف ما وقع للعسكريّ فى كتاب « الكرمآء » ــ اي كتاب « فضل العطآء على العسر » الذي به قوبل كتاب « البخلاء » ــ فلقد اخفق صاحبنا هذا حيث وفّق الجاحظ ، واتى بالعجب!

قال الكاتب الفرنسويُّ الشهير جاك ده لاكروتل ، فى كتاب له جديد ، اسمه : Aveux étudiés (وانا لا اعرف ، فى الادب الفرنسوي ، كتاباً ، فى هذا الباب ، يضارعه !) :

« فى انبآء الهند النيوزلاندية ان البحّارة ، فى بعض البوارج ، قد ثاروا على الضباط ، فاحتبسوهم فى الغرف ، واطلقوا البارجة فى غيرما وجهة ، وان جماعة الحكومة يجدُّون ورآءهم عبثاً • فقلت فى نفسي : سوف يتهافت الكتّاب على هذا الموضوع ، ويتزاحمون لديه ، ولا ريب ! فتحوّم القرائح حول جزائر سمطرة ، وهاتيك النواحي ، تتخيّل الهرج والمرج فى عرض البحر ، ولحاق الطيّارات بالبارجة ، وتسليط النار والشواظ ، من اعنان الجوّ ، عليها ، الى آخر ما هناك ، مما يغري بالكتابة • غير انني اتمنى ان لا يقع ، فى هذا الفخّ ، واحد من الكتّاب•••فان القصة ، على ندارتها ، وغرابة حوادثها ، لمن اتفه المواضيع ! »

ـ يريد ان الحادثة الشاذ ّة ليست من موضوع الادب ، ايضاً .

فاذا قيل فى الحادثة الشاذ ّة ما هنا ، افليس بالاجدر ان يقال كذلك فى الحادثة المبتذلة ؟...

. . .

فى غر ّة الحداثة ، اذ فو ّارة المآء ، فى البركة ، جانب البيت ، هي فى العيون القريبة العهد برؤية الاشيآء ، شلال نياغرا ... واذ باب الحديقة البعيد هو باب الدنيا ... واذ الخادم الهرمة سندبادة بحرية ... كنت كثيراً ما اجلس الى السندبادة ، فى اخريات السهرة ، والفصل شتآء ، واشجار الحديقة تضج ّ فى العاصفة ، والمطر ، والليل المدلهم ّ . فتقص ّ علي الخادم قصص البحر ـ وكنت لم ار َ البحر بعيني ، بعد ـ : فمركب يلجّج فى المحيط ، يمخر فيه الف شهر ، ثم لا يرجع ، وراية عليهـا الغبار من ارض بعيدة ، ونوتيّة خضر ، وحمر ، وبنات مآء نصفهن ّ انسان ، ونصفهن ّ الآخر سمك ، يرقصن على الشطوط ، ورياح تهب ّ فى آخر الارض ، وتأتي فوق وجه المآء ، تهتف بالاغاني ، فى الألسن الغريبة ، الى آخر ما فى تلك القصص ... حتى اذا افرغت الخادم البحر فى مخيّلتي ، وطالت الساعات علي ّ ، اغفيت بين آلآف المراكب ، والرايات ، والنوتيّة ، وبنات

البحر ! فاذا طلعت تباشير النهار ، وقد لطف الجوّ ، وخرجت بي السندبادة الى الحديقة ، واقبلنا على البركة ، قلت لمولاتي :

« ـ مسكين بحرنا هذا ! لا مركب فيه ، ولا نوتيّ ، ولا بنت ماء ، واحدة ... » .

فتضحك الخادم عن مثل فوهة الجرّة ، ثم تقول :

« ـ البحر ؟ انه ارحب من الدنيا ، فاين منه بركة بيتنا ! » .

فأقول ، وقد دهشت ، وزمّ فمي ، فكأنه حديدة الفوّارة ، فى البركة :

« ـ من الدنيا ؟!! » .

« ـ نعم ! ارحب من الدنيا ! » .

فأقول :

« ـ انا ، اذن ، احبك قدر البحر ، فلو تقولين لي ما لونه ! » .

فتقول :

« ـ لون الحمام الازرق ، وتغرق فيه الشمس فيحمومر ، ويزلق القمر ، من منحدر الشمال ، فى بعض الليالي ، فيمسي البحر بركة من الفضة الذائبة ... » .

وهكذا ظلّ البحر شغل خاطري ، وحديث نفسي ، طول ايامي بالطفولة . حتى اذا اوفيت على الشباب ، ونزلت من

بلاد الجبل ، اول مرة ، تلقتني ، خلف الشطوط ، زرقة عريضة ، تبلغ السمآء عند الافق، وتهضب على اللج ، قبالة البيوت ، ثم ترتمي عند الرمل ... فعرفت ان ذا هو البحر !

ولقد ملأت الزرقة ، فى ذلك اليوم ، صدري ، وهدرت هديرها فى ضميري ! فكنت اذا انا تحولت عنها الى بعض المشاغل ، فكأنما كانت عيني تنظر نحوها ، حيث انظر . وكأنما كانت يدي تضرب فى لجتها ، الى الابط ! عين (زرقآء طبعاً) تلحق بي ، فى المدينة ، وتراعيني ...

هكذا استولى البحر على مشاعري ، يوم وفدت عليه ، اول مرة ، فلما قضيت طائفة من ايام عمري ، على قرب منه ، طفق يتراجع عني الى سجنه ، ورآء الشاطىء ، واصبح كل شأني معه انني حين يزبد ، ويرغي ، ويلطم الصخر، امرّ عيني عليه ، فكأني امرّ يدي على لبدة الليث، اربّته ، واهدّىء من جأشه !

. . .

وان الادب ــ الذي لم يبلغ فيه ، بعد ، الى تعريف صحيح ، ولا الى حدّ ظاهر ــ هو اعجب من الحياة ، نفسها ! واعجب ما فيه ان موضوعه ليس من سياقها المعتاد ، ولا من حوادثها المتشابهة ، على انه مرآتها الصادقة ، التي فيها تترآءى ، وتراوح ...

« الشخصية » في الأدب

كان امير الشعرآء ، شوقي ، يقول :

« ـ عند رشيد نخله ، وابنه ، استشعر الطمأنينة ! فاني اجد الماضي واليوم الحاضر قد جمعا ، هناك ، تحت سقف واحـد » ...

فكان ، رحمه الله ، اذا نزل لبنان ، مال على بيتنـا ، وتنعقد الحلقة : طرف منها لليوم القائم ، وطرف للماضي ! وتكرُّ الاحاديث على احدى القضايا فى الادب . فاذا تشدَّد علينا شوقي ، تلاين لنا رشيد نخله .

فيقول امير الشعرآء ، مثلاً ، « بالمنوال القديم » فى الديباجة ، ويضرب المثل « بالبحترية » فى الشعر .

ويقول والدي بديباجة رفيعة ، شرط ان يُستشمَّ منها نفَس صاحبها ... يريد ان « الشخصية » فى الصنيـع الفني ، شرط مقدَّم .

وهكذا كان شوقي في الحلقة يتباعد عنّا ، ويقترب منّا رشيد نخله . حتى اذا حفلت الحلقة من ناحيتنا ، تحرّك شوقي ، في مكانه ، وتصنّع الغضب . فيقول لوالديَ ، في ظرف كثير :

« ـ انك ، والله ، تخاف هؤلآء ... فانت تعدل اليهم ، وتترك هذا الشيخ العاجز » !

فاذا قرّت تلك الفورة المصطنعة ، وطفق رشيد نخله ينشدنا شيئاً من ازجاله « كضوء القمر يفرش اماكنّا ... » او كالتي يقول فيها للحمام : « مرمغ على سطوح الحبيب جوانحك ... » ، قامت الحجة للشباب في ديباجة زجلية بارعة ، ولفظ منتقى ، وسياق متسلسل النفَس ، ينصبّ من شاهق ، دون حاجة ، هناك ، الى الميسم البحتري ! واذا برشيد نخله في ناحية « اليوم الحاضر » ، من طبعه ، لا عن خوف من الفتيان ، ولا عن قلى لصاحبه ! فيتهادى شوقي ، حينئذ ، الى الرضا الحلو .

ثم يتلاقى « الحاضر » و « الماضي » ، على المائدة ، بين طيب الحديث ، وطيب المطعم ، فنشرف من النافذة على الضحى ــ والفصل صيف ــ وتهوي العيون ، من خلل اشجار الصنوبر، على البحر البعيد ، المدفّق الزرقة ! فيخطر ببال امير الشعرآء هذا البيت « الاخضر » للبحتريّ :

وجآء الربيع الطلق ، يختال ضاحكا

من الحسن ، حتى كاد ان يتكلما !

وترجّ المائـدة مـن الطرب ! فيعود الينـا « ابو علي » بحديث الديباجة ، كأن المشهد قـد هاج علينا صدره ••• فيقول والدي :

« ــ هذا الجمال المؤلّف من اشجار الصنوبر ، التـي يراوح بين خلالها البحـر الازرق ، فى هـدأة الضحى ، لا سياق فيه ، ولا تناسق • وهو على ذلـك فتنة ــ ايّ فتنة !! فكيف ، يقال ، اذن : نسق ، وديباجة ، ومنوال؟•• فالجمال بنفسه جمال ! خيوطه منه، والوانه منه، ونسجاته• ولا رابطة بين منوال ومنوال ! » •

اراد والدي بذلـك « خصوصيّة » الميسم ، ثم ضرب المثل « بشوقية » شوقي ، نفسها ، قال :

« ــ شعر « ابي علي » يُعرف من الرائحة ••• » •

• • •

ترعرع والدي على المآء والضيآء ، فى الجبال • فكان عود شبابه يورق عند ضفة ، وتخفق اوراقه على رابيـة ، او على حافات واد • فيسابق ذلك الصبيّ الشاعر موجة الصبح ، حين تندفق علـى مباسط الهضبة ، ويصرخ فى عصفة الريح ، ويطلق قدميه فى حقل السنبل ••• فترعرع

على الطلاقة فى ريف من اجمل ارياف الدنيا ! وكـان ان استهلَّ النظم بالزجل ، فظلَّ ينظم الازجال فى صبايا القرية اعواماً لا تُعدُّ على الاصابع ، لكثرتها ــ كان شأنه يومئذ ، شأن « ميسترال » فى « مايئان » ، قبل عهد « ميسترال » بالقصائد البعيدة الاغراض . فان لوالدي ديواناً يزخر ، من الدفة الى الدفة ، على خدود الصبايا ، وخدود الصباح فى الباروك ... كلّما حرَّكنا اوراقه ، عبق فى البيت روائح العرعر ، والشيح ، والشفاه ، والوجنات ... حتى لقـد بات والدي ، اليوم ، بعد ان شطّت به الايام عن الصبا ، هيهات ان يفتح باب تلك الجنّة الموصدة ، الا اذا خـلا بنفسه !

سألته ، منذ ايام ، ان ينسخ لي قصيدة ، من ازجالـه القديمـة ، أدفعهـا الى مكاتب Les Nouvelles Littéraires الباريزية ، فيستعين بها الرجل ، فى مقـالة يصنعها على بداوات والدي ، فكان منه ان قال :

« ــ أتريد ان افضح نفسي فى اوروبة ، ايضاً » !!!

فكأن تلك القصائد المخبوءة « خصوصيّة » ، عالقـة بلحمه ودمه ، الى درجة يصحُّ معها القول ان مجرَّد النشر ، فى الصحف ، لتلك القصائد ، هو مفضحة عظيمة !!!

ثم اقبلنا على الديوان ــ وهو يقلّب اوراقه ، ويقرأ لنا

شيئاً من هنا ، وشيئاً من هاهنا ـ فاعجب صديقي المكاتب الباريزي ان يسمع اصوات الصراصير ، وهدير الطواحين ، وهويّ النجوم الصغيرة فوق رؤوس الجبال ، فى ديوان زجال عربي ، لا يعرف من لغات الاجانب واحدة، ولا يتأثر من « الفونس دوده » فى « رسائل الطاحون » ، ولا من « شارل مورّاس » فى « صهريج بار » ...

فقال والدي :

« ـ تولد النجوم عندنا ، فى الجبال ، وتصفر الصراصير فى وهادنا ، وتهدر الطواحين . فكيف اقضي العمر ، فى بلاد الجبل ، ولا اسمع شيئاً ؟... » .

ففي مهجة ذلك الريف نشأ رشيد نخله على نظم الزجل ، وجعل الطلاقة اطاراً للاداء ، والصدور عن الخاطر ـ هذا اذا جاز ان يقال ان الطلاقة ، فى باب البيان ، تقف عند حاجز !!

والصدق فى الادب ، يرافق الطلاقة جنباً الى جنب . فرافق الصدق جناحي رشيد نخله ، فى افقه الزجليّ مرافقة لاصقة . فهو يحطّ ، مثلاً ، على شجرة السرو السوداء ، المتطاولة فى الجوّ الازرق ، فلا يزعم انه قد حطّ على وردة بيضاء ، فى بعض الحدائق !

هكذا دأبه : يتناول خياله الواحد من الاشياء فلا يخلع

عليه من عنـده ، قطرة حبر ! فهو يحسب ـ والحمد لله على ذلك ـ ان الخالق سبحانه ، قد خلق فسوّى ، فلا ثمة حاجة الى التصحيح !..

اذكر ان فلاّحة دخلت عليه ، ذات مرّة ، وهو قد غازل الستين من عمره ، وهي قد كبرت ، وذوى ربيع ، كان بين مقلتيها وفمها ، فعرفتها من غير سابقة . ثم قلت له :

« ـ هذه قصيدتك « الشقرآء » ، بعينها ، تمشي على قدمين ، فى بيتنا ... » .

اردت زجليّة له ، على الكاف ، وهي مشهورة ، يقول فيهـا : « والشعر دبس بعلبكي ... » .

. . .

ولقد خطر لي ، اليوم ، ان اكتب كلّ هذا على والدي ، وعلى ايمانه بالميسم الخاصّ ، وعلى ما ينبغي « للشخصيّة » من صدق وطلاقة ، جواباً لطائفـة من المقلّدة ، من الذين يريدون الادب نسجاً على منوال ، وصبّاً فى قالب ، كأن طبع الادب يُقاس او يُكال . وهكذا نكون قد قرعنـا الجماعة بحجة قريبة منهم ، ويكون قـد قام رأينا فى ان الميسم الشخصيّ لا علاقـة له بقبيـل ، ولا بزمن ، ولا بمنوال !

في « القصر العجيب »

كتب يوم اخرج الاستاذ ايلي تيان ديوانه « القصر العجيب » .

قال لي صاحبي ، كمال غانم ، ذات يوم : « أتعرف ايلي تيّان ؟ فهو شاعر فرنسويّ اللسان ، يدير قلمه ، في الخلوة ، الى مهجته ، وقد مُلئت يقظة وحركة ، فلا يردّه الى الورق الاّ وهو يسيل قطرةً قطرةً ! » .

ثمّ دخل علينا ، هنا ، شابٌ في منازل الاربعين ، حلو القامة ، بين المشق والاعتدال . تلمع دون عينيه نظّارتان ، لون السواد فيهما على صفرة . ووراء هاتين ، في ظلّ السواد ، ما شئت من اعماق بعيدة ... قال رفيقي : « هذا شاعرنا التيّان ! » . فجلس الشاعر الى المقعد ، واستقرّ المجلس ، وسأل رفيقي صاحبه ان ينشدنا قصيدة له ، اسمها : « العصفور الأزرق » . فتحرّك التيّان للانشاد ، وانطلق يتلو علينا البيت بعد البيت ، ذلك وقد أخذ سواد نظّارتيه ينجلي عن لمعان محبّب ، واقتربت

الاعماق البعيدة ، وخالطت الصفرة شيئاً من السواد المنجلي ، هو اشبه ما يكون باللون الأزرق ، فكأنما كان صاحبنا يصبغ جناحي « قصيدته » بأنوار عينيه ...

وكان ذلك اوّل عهدي بايلي تيّان !

• • •

ان الشعرآء ، من حيث اخراج الشعر ، واذاعته فى الناس ، طائفتان : واحدة تظلُّ فى قلق واضطراب ، حتى تُعلِن خلجات خواطرها ، وسبحات احلامها ، فتقرُّ وتستريح ، اذ انها ترى الأدب حمل بلاغ ، وادآء رسالة . والأخرى تظلُّ فى قرار واستراحة ، حتى تُذاع كتماتها ، فتقلق ، وتضطرب . اذ ان هذه الفئة ترى الأدب خصيصة « شخصيّة » ، فهو عندها بمثابة شفآء نفس ، وارواء غليل . لا يعنيها فيه ، وقد اشبعت لذّاتها ، وارضت هواها ، لذّات الآخرين ، وهواهم !

وقد انشقَّ الرأي على الفرقتين ، فالذين قالوا « بعموميّة الأدب » ارادوا الفائدة ، واحتجُّوا حتى بالزهرة ، التي لا يُكتفى منها ان تكون بنفسها طيّبة . بل يُحتاج فيها الى النشر ، وسطوع الأرج . فجعلوا الأدب قبالة الطبيعة ، هكذا : واحدة منها بواحدة منه . والذين قالوا بالأدب الشخصيّ ارادوا اللّذة قبل ايّ شيء آخر ،

واحتجُوا بالصدق ، الذي هو شرط الفن ّ • وقالوا ان ّ كشف الصدور للناس ، ونفض كتماتها لهم ، أجدر شيء ان يرافقه الكذب ، وان الكذب يفسد اللـّذة ، وان هذه ، حين تفسد ، يفسد الأدب •

والخلاف بين الفرقتين قد بدأ منذ كان اوّل العهـــد بالأدب ، في الدنيـا • اذ انّ الخلاف واقـع هاهنا على الاذواق ، لا على المدارك ـ وهيهـات ان ينتهي جدل في الذّوق ! واذ انّ هذا الامر ليس كما في قولك : « اثنان واثنان ، جدآؤهما : اربعة » ، وينقضي الجدل •••

وعلى جميع الاحوال ، فالذي يستطاع قوله ، هو ان الشطر الأوفر ، مـن الأدب « الشخصيّ » ، قائم على الصدق ، وان الشطر الأوفر ، من الأدب « العموميّ » ، قائم على الكذب • ومن هنا نشأ ، عند الانكليز ، هـذا القول المأثور : « الصيّت عقدة من الغار على مفرق الفنّ الدنيء ••• » •

وانّ ايلي تيـّان ليس على مفرقه ورقة ، واحدة ، مـن تلك العقدة ••• فالرجل « شخصيّ » الأدب • اذا هـو افرغ في فمه كأسه ، وتوقـّدت ضلوعه ، ونوّرت صباباته ، ألقى عنه اناآء الشعاع ، فلا يعنيه ، بعد ذلك ، ان يكون في الاناآء فضلة لشارب ـ همّه نفسه ، وعليك ، انت ، ان

تنظر فى شأن نفسك !

فلما تلقاني بعض الكتبيين ، منذ يومين ، بنسخة من ديوان التيان ، كدت لا اصدق عيني ! فمنذ متى كان التيان يحفل بنشر شعره ؟ ومنذ متى خرج من ملة البنفسج ، ودخل فى ملة العوسج ؟... وقد كان ، حتى يوم امس ، يتوارى خلف الحياء ، كلما استنشدناه نفحة !! ولكنها يد مشكورة ، لصديقنا شارل قرم ، وهو الذي لم يفرِ احد ، فى هذا الباب ، فريه ! فانه عرف كيف يسرح اصابعه فى زوايا « القصر العجيب ... » ، بين الدفاتر والقماطر والاوراق ، ثم اطل من احدى النوافذ ، من فوق ، ونثر فى الآفاق مخبآت البنفسج ...

. . .

والتيان ، من شعره ، فى قصر عجيب ، حقاً ! فهو يشرف على الحياة ، من النافذة ، ولكن اربة الحرير المخطط فى عنقه ، والزهرة المتخيرة فى عروته ، والقفاز الابيض فوق اصابعه ... فهو ليس من المنفرين عن سياق الحياة : من اولئك ، جماعة « ادب الصومعة » ، الذين ارجلهم الى جانب ارجلنا ، فى الميدان ، على ان رؤوسهم فى المناسك . يعيشون على البكاء والدمع ، بينما الحياة ضجة افراح ، وتردد اصوات !

فالتيَّان ، اذنْ ، ليس فى « قصره » ، والحمد لله ، ناسكاً ! بل هو يكاد يغدو به ذا شأن على حدته . فكأنَّ فى الأدب شيئاً اسمه « الذوق الارسطوقراطيّ » — مع توسُّع ، هنا ، كثير ، فى معاني هذه الجملة — يريد التيَّان ان يمشي على مجاريه . فهو فى ميدان الحياة ، فى الضجَّة ، فى غبار المزدحم ، الاّ انه يمشي وحده ، ويسير على هواه ! اما كونه لا ينشر شعره ، ولا يذيعه ، حتى فى الخلصآء من اصحابه، فذلك شيء يدخل فى باب الدَّعة، ولطف النفس ، ولا دخل له فى الخطَّة الفنية ، والمنهج الفكريّ . اذ انَّ الشاعر الذي يتدفَّق صدره بمثل قصيدة « الوطن » ، و « الجمال » ، و « الفنَّان والجمهور » ، و « اغنية المجنون » ، ليس بناسك يتبرَّم من العيش . بل هو اشبه شيء بالعاشق الذي لم يقتع بالقليل ، فراح يتحرَّق على الكثرة ! لذلك تجد « قصر » التيَّان وسط المدينة ، على الشارع الكبير ، والرَّصيف الرحب ، لا فى القفرة النائية . ولعلَّ « العجب » قد جآءه من هذه ! فهو فى المدينة ، أي فى الهرج والمرج ، الاّ انه يتعالى فى الجوّ ، ويشرف على البيوت من حالق . ونحن من اجل هذه قلنا انه ليس ناسكاً ، وانه « ارسطوقراطيّ » من طراز خاصّ ، واننا نؤثره فى الحب ...

أمّا الصناعة ، عند التيّان ، وأمّا وضع اللفظة فى محلّها الأنسب ، الذي لا تتخلع عنه ، ثم الرنين البعيد ، الذي يتناهى ، ورآء التعبير ، الى ابعد ما تحسّ الاذن ، ثم الأخذ اللبق بشتات المبنى ، والغمز الحلو الى ما بقي من الغرض ، ثم العجيج حيث يجب ، والسكون حيث يلزم ، والبهج ، والانقباض ، والبسطة ، وارخآء السدل ، التي وُضعت فى مواضعها ، فانك فى كلّ اولئك تجد التيّان بارع الصنعة ، لا تكلّ اصبعه من التنسيق ! وبحسبه ان يكون له ، فى هذا الباب ، قصيدتا « العصفور الأزرق » ، و « القصر العجيب » ، ليغدو فى الصناعة وهو الجوهري المقدّم !

ولطالما قلنا ، قبل هذه الكرّة ، انّ الصنيع الفنيّ ، فى رأينا ، ينهض بقائمتين : المعنى من جانب ، والمبنى من آخر ، وانّ الفنّ كله ، انما هو فى قيام هذا النهوض ، واننا نحن لا نحفل الا بمعنى موفّق فى لفظ موفّق . ونزيد ، اليوم ، انّ الذين عاشوا على المعاني ، فى كلّ ادب ، من آداب الأمم ، وصرفوا اقلامهم عن الديباجة ، قد تقلّص ظلّهم ، وخفت ذكرهم . وهكذا يقال فى الذين عبدوا الاوعية ، وانصرفوا عن الأشربة . فانّ ترك هذه خطأ ، وترك تلك خطأ ، ايضاً ! اما الأدب الباقي ، أي ادب

الصحـة التامـّة ، فهو ذو المعنى الصحيـح ، فى المبنـى الصحيح : ابتداع فى الفكر ، وافتنان بالتعبير ، والفـاظ تلتمع ، وخواطر تشرق • وهو الذي يظلُّ فى عافية ما ظلـّت الشمس فى الدّوران •••

قيل لمورّاس : « ـ مثلك انت يُعنى بالألفاظ ، هـذه العناية ؟ » •

قال : « ـ بالأوعية ؟ » •

قالوا : « ـ نعم ، بالأوعية » •

قال : « ـ فاشربوا المآء ، اذنْ ، باكفـّكم !•• » •

فالرأي ، عند جلـّة اهل الصناعة ، انّ « الشخصيـّة » فى الاسلوب هي رأس الشروط • والاسلوب يقوم على الادآء ، والادآء ، فى الجملة ، انما هو اللفظ ! فكيف يتفلـّت من هذه اولئك الـذين يقولون بالميسم الخـاص ، ولا يدينون بالمبنى ؟! اللهمّ الاّ اذا كان هذا العنب حامضاً على اضراسهم ••• فالميسم شرط من شروط الصناعة ، جسيم ، والكاتب الذي لا تستطيع ان تشمّ مـن كلامه نفَسه ، ليس فى عالم التّفح بشيء ••• فهو فى فهرس الأدب نكرة ، لا تهتدي اليـه الاّ اذا ضرب انفـك بانفـه ، فى بعض المصادفات !

ذلك ، والأدب ، فى جمّاعه ، دريعـة من ذرائع هذا

الآدميّ الفاني ، فى ابقآء الذكر ، وترك الأثر ، يشدّ عليها بالنواجذ ، مخافة ان يموت ، يوم يموت ، فيموت حقاً ... ولا ادري بما ينتفع من الأدب ، فى كونه ذريعة للبقـآء الطويـل ، اولئـك الذين لا طابـع لهـم ، فى الأدب ، يُعرفون به !

اما التيّـان فقد ضمنـّا له البقآء ... اذا هو خرج مـن الدنيا ، فانما يخرج بلحمه وعظمه ، ليس غير ! ثم تسلـم له هذه الصحائف التي تطايرت امس ، وراحت تغذّ المسير من قطب الى قطب ، لا وقفة لها ، ولا مغبّة لسيرها . بل هي تظلّ دائرة ، من شفة الى شفة ، حتى تنطفىء العقول !! فالتيّـان ذو « شخصيّة » جليلـة ! ترعرع على اساطـين الصناعة ، وعبّ من ينابيعهم ، وملأ منخريه من جبروتهم . فلما اقبـل على القول ، اقبـل وهو يعرف كيف يجلـو الخاطرة ، ويجلو اللّفظـة ، فى ذوق خـاصّ ، وشيمـة خاصّة . فاتّسق لـه بأخرة ذلك الطابـع « التيّـاني » ، القائم على حدته !

ولعلّ اظهر ما فى ذلك الطابع ، انما هو عمق بلا انتهآء ، وكتمان لجانب من مواجيد النفس ، ثم تشوّق ، كأنه العطش ، يشيع هنا وهنا ... حتى كأنّ اللفظة ، من الفاظ الرجل ، تتلفّت نحوك ، فى السطر ، بعينين ثنتين ...

ومن العبث ان تبلغ عنده الى نهاية العمق ، وتتوصل الى الباقي ، وتفضّ ذلك الشوق ، فانّ شاعرنا ، نفسه ، علم الله ، لا يدري حين يلوي على صدره ـ كما فعل ، مثلاً ، في قصيدته « سرّ نفسي » ـ ايّ شيء هو هذا الذي في قرارة نفسه !

• • •

ولقد كان لنا ، منذ ايام ، جلسة على البحر ، على مائدة « مدام غوري » ، وهي التي ذهبت من سنتين الى ربّها ، لكنها تركت ، من بعدها ، في المطعم ، عشرات القناني ، والموائد ، وورثها ، بين الموقد والشوآء ، اخلاف صالحون ، يحتذون حذوها في الملحمات ، والسبائك ، ورقاق القطائف ... فأطعمنا التيّان الاكلة « التقليدية » عندهم : « سمك بالميونيز » . واحتفلنا بصدور « القصر العجيب » بين صحفة طيّبة ، وقنّينة طيّبة ! اعني خير ما نستطيع ان نصنع للتيّان ، من مكافأة ، في هذه الدار الفانية ! وهو ـ حفظه الله ـ كسيّد الآكلين : بلزاك . يحبّ الصحفة اللاعجة ، والشراب الهادر ، في رفقة تنقر الصّحاف بالاصابع ، وتدقّ الزجاج بالزجاج ... وعلى الطعام ، كما تدري ، يلألىء من خلف اضراسه منابع من النور ، ويسدّ فاه باللقم من لا ينحدر على لسانه بصيص ... حتى كأنّ

للمائدة ، ايضاً ، اثنين من شياطين العرب ، فى الحراسة : شيطان التهمة ، وشيطان الحديث !

وكان ثالثنا ، عند « مدام غوري » : كمال غانم . وهو كالتيّان ، يملأ المجلس ، وقد اخذ زخرفه ، بمن حضر ، ارجاً طيّباً ... ثم تجيل ، انت ، عينيك ، فلا تدري من ايّ زاوية وادعة يشيع عليك الطيب ! شاعر ، فرنسويّ اللسان ، ايضاً ، من سرب البلابل الغردة . اخو التيّان ، والنقاش ، والقرم ، والحكيم ، والحايك ، ولبكي ، وابي زيد ، وأخيه ، وتلحمه ، وشيحا ، وشحاده ، وخلاط ، ورفاقهم من الذين نشأوا فى هذه الاعشاش ، على الصخرة العالية ، وها هم يرفرفون فى ادب فرنسة ، وتنفتح لهم السماوات العريضة ، وتصغي الملايين للزقزقة اللبنانية ... واذا كان هناك ، من غصّة ، يجوز لنا ان نحسّها ، ونحن ننظر الى هذه الاطيار الفريدة ، التي تقضّي ايام الربيع عند غيرنا ، وتحمل اليه اغاريدها ، فهي كون اخواننا ، هؤلآء ، قد ضاعوا على اهل الجاحظ ، وغنمهم اهل « راسين » ...

وعند « مدام غوري » تكون على الشاطىء ، وكأنك بعيد المكان عنه ! فالمطعم ليس بشارع على الموج ، لكنّ صوت البحر يدخل عليه من كلّ شقّ وخلل . فتسمع الجلبة ، ولا ترى الزّبد .

فتلألأ التيّان ، على المائدة ، ما شآء الله له • وآلينا نحن عليه ان يسمعنا ، من فمه ، قصيدته « سرُّ نفسي » ـ وكان صوت البحر ، فى تلك الساعة ، قد دخل من النوافذ ! ـ فطفق ينشدنا ، والبحر يعجُّ عجيجه ، والقناني تهتف بين يدينا ، ما هذا مؤدّاه :

« عبثاً تحاول ان تدرك سرّي •••فأما اذا شئت ان تدركه، فانه يكون عليك ان تغوص على اعماق نفسي اميالاً كثيرة ، حتى تبلغ نهايات اللّجج الزّرق ••• ثم انه قد لا يكون هناك شيء مّا !! » •

فهدأت القناني ، بعد هذا البوح العظيم ، وقرّت الفورة على المائدة ، وكأنما اخذ البحر يتراجع بجلجلته عن المطعم • فنظر اليَّ كمال غانم ، يسألني بعينيه : « ـ ايّ دان بعيد ، وايُّ باد خاف ، وسهل متوعّر ، ثالثنا هذا ، الذي نحاول ان ندرك سرّه ! » •

ثمَّ اننا نفضنا اكفّنا من الطعام ، وخرجنا نتمشّى على سيف البحر ، ويدي فى يد التيّان ، والموج يروح ويجيء ، والزرقة تتضاحك ، والشطآن تنفسح امامنا ، فقلت له ، فى مثل الهمس :

« ـ جشْ ما تشآء ! وتقلّب على حدود التراب ، واحتفظ فى القعر بسرّك ، لا ينتهي اليه غائص • تقرب

٤٨

وتبعد ، وتلين وتقسو ، وتغري وتقطع الأمل ...

« ويا ايها الشاعر « العجيب » : عشْ هكذا ، ابداً » ...

في الأدب الصعب

كان أستاذنا ، الشيخ عبدالله البستاني ، يمتدح لنا ، فى مجالس التعليم ، خليل مطران • وكنّا لا نزال ، يومئذ ، من اصحاب البهآء زهير ، والصفيّ الحليّ ، والحاجريّ ، وبقية تلك الطبقــة • فنتغامز فى المقــاعد ، ونعدُّها على سجية الشيخ ! فانــه كان مفرطاً ، رحمــه الله ، فى حبّ التوغّل • يهبط العمق على المسألة ، فى اللغة ، او الادب ، فكأنما هو يتخطى على درج بيته ••• فنظنُّ ــ واستغفر تواضعه ! ــ انّ فى تعصبه لمطران شيئاً من التباهي بتلك السجيّة !!

اذكر ، فى مــا اذكر ، من ايامنــا بمجالس الشيخ ، ان قصيدة « المسآء » الشهيرة ، لمطران ، كانت هــي محكّ الجودة • فاذا قيل كلام ، فى قصيدة من قصائد المعاصرين ، على معنى بارع ، او لفظ بارع ، جيء بالمحكّ ! ويكثر ،

هنا ، ريق الشيخ ، ويتحرك الكرسي ، من تحته . فيقاس ، فى باب النفس الشعري ، سعة بسعة ، ومهلة بمهلة ... اما الديباجة فقد كان شيخنا يعادل لها ، فى المصراع الواحد ، نسجة بنسجة ، بل خيطاً بخيط !!

ففي بعض الايام ، قلت للشيخ ، وديوان « دي موسه » فى يدي :

« ــ هذا قمر فرنسوي ، حلو المطالع ، اجيئك به ، لتشكه لنا فى « مسآء » مطران ... » .

فبهت ، رحمه الله !

قلت : « هذا ديوان الفريد دي موسه ، واحد الغزلين ، فى فرنسة . وفى الديوان مسآئية ، بقمر ، وقبة ناقوس . فيطلع القمر فوق القبة ، وكأنه النقطة ، فوق حرف « i » عندهم ... » .

ثم رحت اعرب ابيات القصيدة ، فى استعلاء وتعظم ، والشيخ يستمع ، فى اهتمام كثير . فلما اتيت على آخر الابيات ، زم فمه ، ناحية اليمين ، وشد على العين الواحدة ، فى رفرفة مصطنعة ــ عادته حين يهم بالنكتة ــ ثم قال :

« ــ فقأ الله ، برأس القبة ، قمر صاحبك هذا ... » .

فرجت المقاعد بالضحك ! ثم استأنف جده ، فقال :

« — عليكم بالشاعر الذي يحفر صدره باصابعه ! ويطرق منازل للفكر ، وعوالم للخواطر ، ومواجيد النفس ، لا علم لكم بوجودها . وهناك ، حثوا الخطى ، وادخلوا الآفاق المترامية . اما هؤلآء ، جماعة الادب السهل ، فان تحت كل حجر واحداً ، منهم ! ولا تغرّنكم السهولة ، بل يمّموا ناحية الادب العميق ، ذي المسائل ، والاغراض البعيدة » .

فعدت بصاحبي ، موسّه ، الى المقعد ، بعد تلك « الزفّة » الفخمة ! — وكأنما قد كسف وجهه ... — وما هي حتى انشطرت الرفقة : جماعة لمطران ، وجماعة لموسّه . كلما قالوا لنا : مطران ، قلنا لهم : صاحبه ! وظلّ الامر هكذا ، حتى نبت بنا مقاعد التعليم ، وخرجنا الى الدنيا ...

. . .

ولقد كنّا ندو ، منذ اعوام ، عند امين تقي الدين ، فى ساعات طيبة ، حقاً — عفا عنها الله — ! ذات لألآء ، وشميم يملأ النفس ... فنكبُ على شهيّ الاحاديث ، والقوافي ، والقناني ، والسمك « بالميّونيز » ، ما شآء الله لنا !

وكان امين مطرانيّ الذوق ، فى الشعر ، وفى الكتابة ، كثير الحب لمطران ، هيهات ان يصرفه عنه « ميّونيز » ذو عبق ، او قنّينة ذات هدير ، وختم ، كالعقيق احمر ...

فلوّح لنا ، في بعض الليالي ، بمطرانية جديدة ، كانت نسختها في يده — هي قصيدة « الحديقة المرشوشة » — ولم اكن انا قد ظفرت بها ، بعد . ثم حلف بخمس ، كانت مصطفّة ، ملآنة بين يدينا ، على المائدة ، انه لن يطلع ببيت واحد ، من القصيدة ، قبل ان اقصّ انا ، في الرفقة ، حكاية القمر والقبة — وكان الشيخ البستاني ، قد لقي وجه ربه — فافرغت القصة ، بحرفها ، وتذكرنا ايامنا بالطلب ، عند الشيخ ، وملاعبنا ، في خضرة العمر ، على دفاف الدواوين ...

ثم طفق امين ، يقرأ القصيدة ، في فورة من الطرب ، ويتمهّل بين البيت والبيت ، ويطلق نبرة صوته ، حيث تمرّ القرآءة بمجاد في الجزالة ، او في الدقة البالغة مبالغها ، ويعيد ذلك كرّةً كرّةً ، وكرّتين كرّتين ، حتى كاد يرقص السمك ، في الصحاف ، بين يدينا ...

ويرحم الله استاذنا البستاني ! فانه لو امتدّ به العمر الى عصر « الحديقة المرشوشة » ، لقرّت عينه ، وطابت جوانب نفسه ، اذ هو يرانا نفقأ ، نحن ، باصابعنا ، قمر القبّة ...

. . .

يوم دخل الاكاديمي، وذلك عام١٩٢٧، واحد الآحاد، عند الفرنسويين ، « فاليري » ، شغل دخوله صحف الأدب ، في

اوروبة . فان « فاليري » هو ، فى هذه الاعصر الحديثة ، آية الأدب الصعب . يسقط القعر ، على الغرض الشعريّ ، فيظلُّ يلجّج ، حتى يصيب اللؤلؤة ، فى اعماق المنابت ... فـاذا انت تصفّحت ، مثـلاً ، كتابه : La Jeune Parque رأيت ، ايّ شاعر ، هناك ، يوفي على الغايات ، ويقطـع الاجواز ، ويسحب الذيل على الآفاق العريضة !!

وانك لتأخذ اللفظة الواحدة ، من كلامه ، عن موضعها ، فاذا مكانهـا فى السطر ، قـد خرب ! لشدّة التماسك فى السياق ، والتلاحم فى الخاطر ، واذا تلك اللفظة ، فى يدك ، وهي تقطر عقلاً ، او تقطر جزالة !! وتحكّها فكأنما تحكّ باصابعك ، قطعة من الضيآء ، لفرط ما بهـا من الصقل ! وعلى الجملة ، فان فاليري هو نعمة لله ، على امة فرنسة ، بل على البشر الفانين ، خالدة ! فلما دخل الاكاديمي ، كتب بعض الكتاب ، فى جريدة « له نوفل ليتارير » ، يقول :

« صاحبنا (يريد فاليري) لا يرضى ان تدخل فهمك فى نتاج قريحته ، ومحصّل بيانه ، بسهولة ما تدخل قدميك فى حذآئك القديم ... » .

اي انّ فاليري شاعر صعب !!

* * *

فيا ايها القارىء : ان الضحولة ايسر من اللجّ بكثير ،

والمشي فى الشطوط اهون من الغوص ، وتقحم الاعماق ، بالف مرّة ! غير انك تجد شعاع الشمس ، الذي يدخل عليك ، من النافذة ، هو فى سبعة الوان . فكأنما الخالق ، سبحانه ، لم يفتل ذلك الشعاع البديع بالسهولة التي تظنها ، انت !

وترانا نحن ، فى الأدب ، على دين خالقنا ...

أدب الصومعة

صُدّرَ به كتاب « الصنّاجة » ، للشاعر الرياشي .

بين داليّة ابي العلاء (غير مجد) ، و « رباعيات » الزهاوي ، و « مواكب » جبران ، و « صنّاجة » الرياشي ، نسب ، وعرق متين ! فهي ، في الجملة ، قنوط من العيش ، وملل من السعي ، وتضاحك بالناس . فكأن هذا الفرع ، من الادب العربي ، شيء قد جُعل على حدته . لا صلة بينه وبين فرع آخر .

ثم انه يتلاقى على ذلك شعرآء من كلّ صوب : فسرب من ضفاف دجلة ، وسرب من اصقاع « المهجر » ، يُضاف اليهم شعرآء ، من هنا وهنا ، ما برحوا زغب الحواصل . فهم لم يعتلوا الجوّ ، ولا تجاوبت الجهات باصواتهم ، بعد ! بل انت تسمع لهم ، بين الحين والحين ، هتفات خفيفة ، تجيء بها الريح وتذهب .

وانك تعجب ، ولا ريب ، لذلك الفرع العربي ، الـذي نبت ـ أو كأنه نبت ••• ـ على جوانب « اللزوميات » ، كيـف لم يستقم ساقـه فى النمـآء ، ولا خرج شطـؤه على عـادة الشجر !! فهـو غـراس عجيب ، طلـع فى « المعرّة » ، واورق فى « نيسابور » ! اي انه نبت فى « دهليز » ابي العلاء ، ومال بالظلّ والزهر على « بساط » الخيّام • فقلْ فى ذلك الفرع الاعوج : انه غرس نسقيه المآء عربياً ، فيخرج الزهر فارسياً ـ كأنه احدى الشجرات فى حقلك ، على الحدّ : همّها عليك ، وظلّها على جارك •••

وان ذلك الفرع لم يتبدّل له ، بتوالي الازمنة ، حال مّا ! فهو منذ العهد بالخيّام ، حتى يوم الناس هذا ، لا يزال على شيمة واحدة : مقت للناس ، كما رأيت ، وهزؤ باحـوال الحياة ، واطـلاق لهوى النفس ، وتباعـد عن المعتـرك الانسانيّ ، حتى انك لتحسب ، معه ، ان الدنيا قد خُلقت لرجل واحد ! فبينا انت ، من يومك القائم ، حيث تعجُّ هذه الدنيـا العريضة بالغادين علـى العيش ، وتزحم المناكب المناكب ، اذ الواحد من اولئك ينادي بك ، من بعد ، وهو فى مثل كوّة الصومعة • فتدهش لذلك المتخلّف عن ركب الحياة ، وتسأل نفسك : ما شأنه ، وما تخلّفه ، وما ينتفع هو ، او ينتفع الناس ، بايام عمره ؟!

فتجد ان صاحبنا قاعد الهمّة ، فاتر العزم ، همّه من هذه الدنيا : بساط عشب ، وكأس خمر ، وساعة من الزّمن مع حبيب ، وعلى كل شيء العفآء ، بعد ذلك...

ولعمرك ! كيف يتبدّل « ادب الصومعة » ، هذا ، ويمدّ ساقيه على بحبوحة ، وهو الذي مجاله أضيق من بياض الميم ! فكأنه مخيّلة « مانه » فى كلام « لزولا » ، يقول فيه : « مانه عصفور صغير ، فوق غصن صغير ، فى ربيع عمره خمس دقائق ... » .

وهكذا « ادب الصومعة » ، فانه لفّ ودوران حول غرض ، هو أيسر من ان يُعدّ فى الهموم ! فلا غوص على لجج النفس ، ولا التفات الى محجّب من وجوه الحياة ، ولا كدح فى صعيد الفكر ، ورآء الحق والجمال . فاذا وافى حبيب على وعد ، وامتلأت كأس الى طفاف ، واحتفل مكان بعشب اخضر ، قامت الدنيا ، فى نظر اولئك ، واستراحوا حيث تتعب العقول ...

وان الدنيا تكاد تشرف على آخرها ، لولا قليلاً ، وهذا ، « أدب الصومعة » ، جاثم فى موضعه ، لا يتحوّل عنه شيئاً ! فلا هو مدّ ، بعد الخيّام ، اذناً ولا اطّرح عيناً ، ولا سرح فى شيء اصبعاً . بل ان القصّة ، كلّها ، هي ان شاعر الفرس ، بعد ان جاب فكره الارض والسماوات ،

وأوفى على الأمر ، برّح به الكدُّ وعنت التفكير ، فاطلق في وجه الحياة رباعيّة حرّى ــ عذرُهُ بها عذرُ الرجل بالغمرة التي تغمُّ النفس ، في بعض الاحايين ، ثم تنجلي ! ــ فتعلّق اولئك المقلّدة على الرباعيّة « السوداء » ، وحسبوا ان تلك النفثة الخيّاميّة هي غاية صاحبهم من الفلسفة ، وجماع رأيه فيها . فاعجبْ لأدب سُمِّرَ عليه بنفثة مغموم ! تتحوّل العقائد ، وتترامى اغراض النفوس ، وتنفسح شقّة الفكر البشريّ ، وهو لا يتزحزح عن مكانه !

و « أدب الصومعة » هو ، في زعم اهله ، ادب الحب والطبيعة . فاما اذا جئت تسألهم لساناً منهم ، يبحث الطبيعة والحب ، كأن يذكر لك ، مثلاً ، علاقة الطبع بالحسّ ، او علاقة النفس بالطبيعة ، في شيمة من شيم الخلقة ، فانك ، في ذلك ، تطلب ريشة العنقاء ... فالجماعة كندامى المجوس ، يحتسون الخمر بالنظر ، وينشقون الزهر بأطراف الاصابع !

. . .

وانّما الادب الحقُّ غير ذلك !

هذا شكسبير ، نفسه ، وهو نادرة الأزمنة ، تكاد العيون تتغامز ، اليوم ، على اوجه العالي ، ويكاد المتشدّدون يهمّون بالقول ان « الشكسبيريّة » اصبحت على شفا

هوّة ، سقوطها أقرب ممّا يدور فى الحسبان . ذلك ان هذا الادب « المطنّب » ، وهو الذي لا ينغمس فى معمعان الحياة الى الركب ، قد بات فى زماننا ، زمان « التبسّط » ، مزلزل القدم !

ومن بوادر هذه « الشعوبيّة » الادبية الجديدة ، ما تراه فى الادب الفرنسوي ، مثلاً ، من تنكّب عن الدرب ، حتى لقد استطاع ، امس ، كاتب ناشىء ، اسمه ، فى ما اتذكر : لورين ، ان يضحك ، فى بعض الجرائد ، على أنف كورنايل ، فيقول فيه : انه « صنم الفضائل الاكمه » ، ولا تقوم القيامة ، فى اوروبة ...

والذي يقال ، هنا ، فى الادب ، يقال فى الموسيقى ، وفى التصوير ، وفى التمثيل ، وفى مختلف الفنون . فان مونه ، وهو ، عند الفرنسويين ، آية الجيل المولّي ، يكاد لا يذكر ، اليوم ، بشفة ، فى فجر « الكيبيسم » الطالع . ويكاد يخفت صيت وغنر ، فى ضجة « الانطلاق » ، التي يثيرها فان دونغن ، ورينالدوهن . فلقد أعقب نسق الدقائق ، فى الرسم ، نسق الجملة . وأعقب التبسّط ، فى الموسيقى ، التماسك . وبكلمة اخرى : انّ الفنون تنزل ، اليوم ، من صفّ التألّه ، لتلجّج فى المحيط الانساني !

فاذا جاز ان يقال هكذا فى شكسبير ، وكورنايل ،

واضرابهما ، من اصحاب المتعات فى نتاج الفكر البشري ، فكم يجوز ، لعمرك ، ان يقال فى هؤلآء ، زمرة «الخيّامين» المساكين !..

• • •

كتب فاليري، يوم رُفعت القبّة على قبر الجندي المجهول، فى باريس ، قال :

« على اصحابنا ـ يريد اهل الادب ـ ان يستيقظوا من النوم ... فان قبر الجندي المجهول قصيـدة ، تخرجها الحياة على أتمّ ما تكون معاني القصائد ، دون ان يُفتقر الينـا فى شيء ! فتلتقي تحت القبّة ، هنـاك ، قلـوب الفرنسويين ، من كل حدب ، ترفّ على البلاطة ، وتحومّ بملايين الاغراض المتفرّقة ، من الف المشاعر الـى يأنها !! فاذا أخذت الحياة تخرج للناس ، فى غيبة الادب وتقصيره ، امثال هذه القصائد الوافية ، فأيّ حاجة الى الشعرآء ، تكون بعد ذلك ؟.. » .

ان الادب مرآة الحياة : مجالها مجاله ، واطارها اطاره ، ولا ريب . وكل ادب لا يترآءى فيه وجـه الحياة على تمامه ، هو مرآة ناقصة ، طرحُها أجدر من الابقآء عليها . وكما ان الحياة قسوة واعنات، وتصعيد وتصويب ، فكذلك ينبغي للادب . اذ انه من المحصّل ، الذي لا يختلف فيـه

اثنان ، ان الضحولة لا تقذف اللؤلؤ ، وان عباب اليمّ لا يُشقُّ برأس الاصبع ••• ومن العبث ان لا يُجعل الادب فى تقليد الحياة ، حذوك الشيء بمثله ــ وعفا الله عن اوسكار ويلد ، حيث يقول ، فى بعض لطائفه : « الحياة تقلّد الادب ، ولا يقلّد الادب الحياة ••• » •

والادب تأدية رسالة • عهدُه فى الله : الحق والجمال • وفى شرط هذا العهد ان تؤدَّى الرسالة وهي تقطر بدم القلب ! كدٌّ على الحق ، حتى يشعشع بياض الصحيفة من البرهان ، وحب للجمال ، حتى تتفتّق قصبة القلم من الوله !!

ذلك هو الادب الحقُّ ، وذلك شأنه ! اما ان يظلَّ الادب ، عند حاله ، فى رباعيات الخيّامين ، وخماسيّاتهم ، وسداسيّاتهم (الى آخر هذا الحساب) ، ينظر من بعد ، ولا ينقل نحونا قدماً ، واحدة ، فان الحياة تبرأ منه ، في قليله وكثيره ! دعْ ان « ادب الصومعة » غريب فى عقر داره ! فهو يتهالك فى التباعد عنّا ، تقرُّباً الى ذوق الفرس القدماء ، الذين هم من جيل الخيّام • ترى اهله يطبعون اذواقهم على مشخّصات الفارسية العتيقة ، يتّخذون لها المقاطع مقطّعة من كل وزن ، وبياض الصحائف صحراوات رحيبة ، تنطرح بين البيت والبيت ــ حتى لقد كاد يدّعي

باعة الورق انهم انصاف ادبآء ، محتجّين بذلك علينا ...

وتراهم يتهاونون بالاوضـاع ، ويعبثون بالتقـاليد ، والاصول ، اي كما فعل الخيّام يوم « الرباعيات » ، فانه تهاون باللغـة الفارسية ، وعبث بتقاليدهـا ، واصولها ، عبثاً كثيراً .

وان شرط الادب ، قبل اي شيء ، هو ان يكون ، فى الاقل من نصيب الامة، تفيء اليه من سبيل ممهَّد ، فيغدو، هكذا ، صورة صحيحة فى تأريخها ، ومشاعرها ، واذواقها. وشرط الصدق ، فى الادب ، هو ان يصدر واحدنا عن ذات نفسه ، وعن احوال بيئته ، لا ان يكون لسانه منّا ، ثم يغدو يكلّمنا من ورآء المسائل الاجنبية ! وشرط التلاقي بين الادب والرسم ، فى الصنيع الفنّي الواحد ، ان تكون الريشة فى شأنها ، ويكون القلم فى شأنـه ، لا ان تطغـى الريشة فوق القلم ، فيقصّر الادب ، ويقوم الرسم بالشأنين جميعاً. اذ ان الادب لا تزيده مرافقة الرسم له شيئاً، ولو قد سعفه ده فنشي ، مثلاً ، بألف جوكوندا ! وشرط الاجادة فيه ان ترضى الاوضاع عن النتاج . فان فى الادب سياقاً ، هو الحسَن على كل جيل . وآية المضمار فيه الا ينفـرط التسابق ، بل تذهب الجيـاد فى شوط واحد ، فلا ينـد

الجواد عن فوجه ، ولا ينطلق على رأسه !

• • •

هذا من جهة الغرض ، اما من جهة الصناعة ، فان بيننا وبين الخيّامين خلافاً ، ننادي به من فوق السطوح !

فنقول نحن ، فى الصنيع الفنيّ ، بالخاطر الشائع من المستهلّ الى المقطع ، حتى تصبح القصيدة قطعة واحدة ، ململومة الاطراف ، لا افراط فيها ولا تفريط ، وبالمعنى الذي يسكن المبنى ، فينصبُّ الماء ، فى ذوقنا ، ملء الاناء : معنى واحد فى مبنى واحد ، لا ألف اناء لقطرة ماء ...

ونقول بالاداء السريّ — فالديباجة البارعة شرط ، عندنا ، مقدّم ايضاً ! اذ ان الصنيع الفنيّ ينهض بجناحين : المعنى من جانب ، والمبنى من آخر . والأدب ، على الجملة ، انما هو بيان ، فكيف يصلح امره الا حين يكون صبيحاً ، ظاهر البهج ، دافق الرونق !!

ونقول بالميسم المطبوع ، فيكون على الصنيع الفنيّ نفَس صاحبه — يكاد يتبيّنه القارىء من الرائحة ... فتسلم الاعراض فى الادب ، ويصبح لكل بنت ، من بنات الافكار ، والد واحد ...

ذلك رأينا فى الصناعة . فأما رأي الخيّامين ، فهو فى هذا الذي تراه لهم من تقطيع للأوصال ، فى « الوحدة » الفنية ،

وكيل للألفاظ فى المعنى ، والعبث بالمبنى ، والتقليد فى اللهجة ، الى آخر ما هناك ...

• • •

وبعد ، فهذه هي « الصناجة » بين يديّ ، الآن . يطالعني منها صديقنا الرياشي بوجهه الوادع ، ونظارتيه السوداوين ، فاستشعر اللين تحت اظفار يدي ، ثم اقلب الصحيفة ، فاهمُّ بما لا افعل !.. ثم أقع على مثل الواحة الخضرآء ، ثم يفجؤني شيء كأنه المهمه القِفر ، ثم تتحرك اظفار يدي ، ثم تسكن ، وهكذا الى آخر الكتاب ! فلمّا طويت الدفئة ، انتصب عفريت النقد ، يقهقه فى مسمعي . فكأنه كان يضحك منّي ، ويسخر بالصبر الجميل ...

ولا ، والله ، ما هاودت صاحبي الرياشي فى شيء ! فان الرجل لا يبرح ، فى أمره ، بين بين : له قدم فى «الصومعة» ، وقدم فى المعترك . لم يفلت من يدنا ، بعد . فهو اذا زلق من ناحية ، تماسك من اخرى . فكيف يُراد مني ان استكثر عليه رحمة الله ، واقطع منه الأمل ؟! ففي غد ، ان شآء الله ، يطرح شاعرنا ابريق الخيّام ، ويقبل على الينبوع العظيم ، يعبُّ ، ويغترف ، ويبلُّ الارض !

والرياشي طريء الذهن ، نديُّ العارضة ، مورق ما

بين القلب والفم ــ اضف الى ذلك بلاغاً قوياً ، يجيء به من صبب عال ٠

فيا أيها القارىء : اضرع اليك ان تكتفي منه ، اليوم ، بما ترى فى « الصنّاجة » ، من هذا العطش الميمون ! فان صاحبنا لن يرتوي من « الابريق » ، وسيلوي على الينابيع ...

من هموم الفن

« فى المخالفة والمشادّة والحرية »

يولد الفنُّ فى المخالفة ، ويعيش فى المشادّة ، ويموت فى الحرية ! فاعجب لذلك الوليد المنقطع النظير : يخرج من الطبيعة فيخالفها ، ويتقلّد سلاحها فينازلها ، ثم انه يقع الى الارض خاسفاً ، ذاوياً ، فاتر القوى ، يوم يشيح عنها بوجهه ! فانما الصنيع الفني هو مفرد ، ما دام لا يشبه صنيع الطبيعة ، متحرّك ما دام لا يسكن الى قسرها ، متزن ما دام لا يبعد عن دائرتها . وبذلك يكون فى صفاته الثلاث : تفرّد ، وتحرّك ، واتزان .

وان الفن والطبيعة لا يبرحان فى المشادّة منذما كوّرت هذه الارض ... فهما يلتقيان ، او يتعانقان (على لغه بعض المساكين من الكتاب !) الا ان الفن ، (وذلك من سوء حظ هؤلآء) لا يعانق امه الطبيعة ، الا ليشدّ على خناقها ... فهو يخرج ، مثلاً ، القصيدة فى زهرة الورد ، وتخرج هي

زهرة الورد ، نفسهـا ، فاذا القصيدة من ناحية النفَس والادآء ، دع التوفيق فيها ، او الخيبة ، لا يُلفى نظير لها فى القصائد ، فى حين ان زهرة الورد لا تكون فريدة نوعه ، وهذه نظائرها ، سنةً وامةً ، نوابت فى كل صعيد ـ زهرة الورد كاختها زهرة الورد ، ابداً ! ومن هنا يتعالى الفن ، ويتفرّد ، وتتدنّى الطبيعة ، وتتبذل ، فان صنيعه وحد ، وصنائعها آحاد. ولذلك ما قيل ان الطبيعة تغار من صنوها، هذا المتكبّر ، وكأنما تعنت نفسها فى مجاراته ...

هذا فى صفة الفن الاولى ، المخالفة . اما الثانية ، وهي المشادّة ، فبحسبك ان تعلم انه كان من نعم الله على ميكال انج ، يوم صنع « تمثـال موسى » ، وجود المرمر ، بـين يديه ، من مقطع رديء ! قال بعض ثقات هذا الفن : فلمـا بلغ صاحبنا ، فى النحت ، الى اليد اليمنى ، وكان الحجـر يقسو ، تحت منقاشه ، ويتصلّب ، أخذ هو يلطّف ، هناك ، من اشارة موسى ، ويقصّر ما بين الساعد واللحية ، حتـى جآءت الاشارة غرّةً في النقاشة ، على تطاول الازمنة !

هكذا يصدع الفن الطبيعة ، ويجالدها ، حين تتصلب له ، بل هكذا يمدّ من دائرتها ، لينطلق فى المدى الجديـد حرّ الجنـاح . فهو كلما عبَّ عبـابه فى الابتداع ، أخذ يتدفق على حافات الدائرة ، وكأنه ، بذلك ، يهمّ ان يتفلت

من كل عائق ...

وان الفن لا ينطرح فى حضن الطبيعة ، الا حين يكون عليلاً ، مكدود النفس ، مقلّم الاظافر ! فهو يداريها حين لا يستطيع ان ينشب ظفره فى مقاتلها ... اما اذا تعافى ، وامتلأ حياة وقوة ، فالويل لها من ساعده المفتول ، ونابه المحدّدة ! فانت تراه ، فى ايام علته ، يسكن الى كل بادرة ، وتراه ، فى ايام عافيته ، يهزّ عطفيه من القوة والاشتداد ! ولذلك تجد الادب ، فى عصور النهضات ، يتبرّم من الاعتياد ، ويتحرك للابتداع – وهو ما وقع ، مثلاً ، لاهل «التجدّد» الفرنسوي « La Renaissance » فى خلق «المقطّع» « Le Sonnet » ، وللاندلسيّين فى خلق « الموشّح » .

وان الذي يقال فى المشادّة ، فى الادب ، يقال ، ايضاً ، فى سائر الفنون . اذ ان بيتهوفن ، مثلاً ، لم يبلغ مبالغه ، فى الطبقات العلى ، من الموسيقى ، الاّ وقد نفض عن اذنه النغم المعتاد ، وانطلق يردّد ، عند الحدود القصيّة ، من دائرة الطبيعة ، الف نغم طريف !

اما الحرية ، فهي قاتلة الفن ! تغريه ، من بعيد ، وتوسوس له ، حتى اذا وقع فى الفخّ ، ادرك ، بأخرة ، انها ليست من نعم الله على الصناعة . ولقد كان قدمآء اليونان – وهم ، ولا منازع ، اساتذة الخلق فى الابتداع ، والتفسيح فى

الفكر ـ يطردون ، من ارضهم ، من يضيف ، فى القيثارة ، وتراً آخر ... فان الحرية ، فى الفن ، هي ذات دائرة ، من تعدّاها فقد تعدّى دائرة العقل ، لا اقلّ ولا اكثر ! وانك لتستطيع ، فى دائرة الحرية ، هذه ، ان تضع قدماً فى قطب الجنوب ، وقدماً فى قطب الشمال ، وتصبح الدنيا تحت قدميك ، هكذا ، قبل ان تستطيع ، مثلاً ، ان تطلق فى جوّ ، لا هوآء فيه ، طائراً يرتفع فى طيرانه !

ثم انك تجد ابن الفن ، فى دائرة الحرية ، وكأنما قد شُدّ اليها بخيط ! فهو يحلّق حيث يشآء ، ويرفرف ، اذا شآء ، فوق رؤوس النجوم ، ويعرّج على منازل القمر ... ولكن ليس له ان يقطع ذلك الخيط ، فانما ينقطع ، حينئذ ، كل هذا الذي بيننا وبينه !

اعرف فى الكتّاب ، الذين لا يضطرب لهم الخيط ، حين يحلّقون ، كاتبة قلمها من اغصان الجنة ، وانقطاعها عن الكتابة ، اليوم ، من انقطاع الغيث ... عفيفة صعب ، وهي التي لا يتأخّر « المبتدأ » عندها ، فى الهيّن !

ولقد كان اصحابنا ، فى بيروت ، ايام فوضى الادب ، يتعصبون لعفيفة ، ويحجّون بعقلها مجانين الفوضى! واتفق، فى بعض الايام ، ان كان واحد من اصحابنا يشرح « لفوضوي » منهم ، له ذرّة من العقل ، تمسّك عفيفة

بعقلها ، فقال الرجل :

« ــ تعني انها ، في الادب ، عبدة ؟؟ » (يريد : أمة) .

قال صاحبنا :

« ــ عبدة ، نعم ! لكنها عبدة بيضآء ... » .

فحلا لنا هذا الجواب ، يومئذ ، كثيراً ، واصبحنا حين نجلس على الحديث ، ويقول قائلنا : « فلان من العبيد البيض » فكأنه كان يقول : انه من صفوة الكتاب !!

وكان عندنا ، في بيروت ، في بعض المواسم ، الرسّام التركي الاشهر ، طارق بك . نزل بلبنان ، وريشته في يده ، يطلقها في الاصباغ والالوان ، بين البحر والجبل ، كل يوم ــ من زرقة الى خضرة الى بياض ، مشوب بحمرة ... فجرى لنا حديث ، ذات مرة ، على الحرية في الفن ، وما يطاوع ذلك ، والاستاذ طارق بك حاضر ، فقال :

« ــ ليونار دي فنشي ، نفسه ، لا يستطيع ، وهو ، في فن الالوان والخطوط ، واحد الدهر ، ان يجعل العينين الزرقاوين ، مثلاً ، سوداوين ، وتجيء الصورة بذلك مطابقة للاصل ! فان حدود الحرية في الرسم هي كحدودها في الادب ، سوآء بسوآء » .

ثم ساق لنا قصة الواح ثلاثة ، حاول دي فنشي ، في كل واحد منها ، تصوير ابتسامة « الجوكوندا » على فم غير

فم « موناليزا » ، فلم يوفّق فى لوح واحد . ذلك من كون دي فنشي قد خرج ، هناك ، عن دائرة الحرية ، واجتازت ريشته حجاز الصواب ...

وجملة القول : انّ على الادب ان يخالف الطبيعة ، وان يجالدها مجالدة القوي ، ولكن ليس له، فى تينك الحومتين، ان يطرح مثقال ذرّة من عقله ! فآية ابن الفن ، فى الفن ، ان يعرف كيف يشدّ الخيط ، خيط العقل ، فلا يفلت من يده . اما اذا هو افلت ، فلا المخالفة تشفع بالصنيع الفني ، ولا المشادّة . اذ ان الشرط ، فى كلّ شيء ، هو ان تكون ذا عقل ، قبل كلّ شيء !

اما نحن ، يا رعاك الله ، فعندنا ، فى الفن ، همّ فوق هذه الهموم الثلاثة ، وهو اجلّ منها ، وأدهى ! ذلك اننا لم نستطع ان نحصي نجوم الليل ، وهموم الفن ، بعد ...

حول القناطر

هذه الفصول ، الآتية ، لا تتصل بالغرض الذي عنه صدرت فصول « تحت قناطر أرسطو » ، لكنها كتبت ، وإياها ، فى مناهج متقاربة ، وخواطر ملتئمة ــ بل لعلّ فى هذه ، من ضرب المثل ، ما فى تلك من بسط القاعدة ، لذلك ضمّت الى الكتاب .

الى صاحب « الزورق »

الاستاذ توفيق عوّاد كاتب قصصيّ ، من الطبقة العالية ، فيّ نابتة العصر . له دقّة لحظ ، وشفوف حسّ ، وحرارة قلم . وهو ، الى ذلك ، شاعر لطيف الرّوح ، لطيف القافية . فلمّا نشر ، فى الجرائد ، أولى قصائده (وقد جعل اسمها : زورق الاحلام) قدّمها المؤلّف ، الى القرّاء ، بهذه الرسالة ، وهي موجّهة الى صاحبه :

اهلاً « بزورقك » ، ينزل البحر ، على كفّ الحقّ ، وكفّ الجمال ، من صوبنا . ويتهادى ، فى الطريق الى اليوم المستقبل ، بين زرقة الماء ، وزرقة السماء ، ويبلغ المرسى عمّا قريب !

ولسوف تهتاج الريح ، فى السفر ، ويهضب حولك البحر ، بل ربما تقاذفك الموج الى حيث النوتيّة الغلاظ — فلا تجزع ! فأمّا البحر فان له فورة ، ثم تقرّ . واما اولئك ، فانهم فى الغرق ... ولا يسلم ، عند الميناء ، ويدخل فى الأمنة ، الاّ زورق كان باسم الحقّ مجراه ، وباسم الجمال !

كنت ، يوم أقرأتني « الزورق » ، فى حيرة ممّا اجيب به

سيد كتاب فرنسة ، شارل موراس ، على رسالة منه ، ألقيت الي ، فى ذلك اليوم . وهي التي فيها يقول : « لا تستطيع فرنسة ان تجحد فضلاً ، للأدب العربي ، على التمدين ! » . فوالله ، اني بقيت ، طول ذلك النهار ، فى حيرة ، ممّا اجيب به الرجل ، على ما ساق الي فى كتابه ، حتى لقيتك ، فى المصادفة ، وأقرأتني القصيدة ، ففرّجت عني كثيراً !

فلقد بدا لي ، فى تلك الساعة ، وانت تقلّب ، بين يدي ، أشهى الخواطر ، والرّقائق ، والبراعات ، ان اليد العربية ، التي لا يجحدها الفرنسيون ، لنا نحن فيها بعض الاصابع ... اذ انّ فى مثل هذا الفضل ، يستوي متقدّم ومتأخّر ! وها انا نعيد ، على هذا الشاطىء الشرقيّ ، من المتوسّط ، وذلك بفضل اصحاب « الزّوارق » ، امثالك ، سيرة الفضل القديم ... فتنزلون الابيض المتوسّط ، من ناحية مطلع الشمس ، من فلك الضّوء والابتكار ، الى الآفاق الغربية ، البعيدة ـ كما كان العهد بالفضل ، الذي عناه موراس !

نعم ! لقد فرّجت عني بقصيدتك ، وجعلتني انظر ، بعينيّ ، هاتين ، زوارقنا العربية الحلوة ، وهي تنحدر الى البحر ، من جبهة الشروق ، وتغذّ المسير الى الشطآن الغربية ،

حيث كان اوٴلنا ينزل بالزوارق والوسق ، من فلسفة وخيال !

وهكذا أخرجتني من الحيرة ، حين اذكرتني « بزورقك » جماعة الوسق الجديد ، الذين تنتظر الآفاق طلوعهم ، من صوبنا . فلمّا كتبت بالجواب الى مورٴاس ، عرفت كيف افتح عيني ، فى الرسالة ، فلا اغضُها من كلمته العظيمة ...

ومن العجب ان خير ما اخرجه مورٴاس ، لبني قومه ، هو كتابه الذائع الصيت : L'Etang de Berre ، الذي تدور فصوله على صهريج «بار» ، فى «البروفنس» ، مسقط رأسه ، وكون قصيدتك تدور قوافيها على المآء ، ايضاً ... واني لا ادري كيف قامت الصلة ، فى خاطري ، بين القصيدة والكتاب ، على ما بينهما من بعد ، فى الغرض . الاّ انني لم استطع ، وانا اكتب لمورٴاس ، ان اطرح من بالي تلك الصلة الموهومة . فذكرت له — فى ما ذكرت — ان التفاتات الذهن العربي ، اليوم ، تشبه التفاتات بني قومه الى الحياة ، وتشوٴفهم الى الطبيعة . فكنت بذلك كأنني احاول التباهي على مورٴاس ، نفسه ، واردٴ عينه عمّا تركته ايدينا ، من نقش وزخرف ، فى حيطان اسبانية ، الى خواطرنا وانفاسنا !

وهذا كله ، لولا قصيدتك ، يومئذ ، لما كان لي منه ، فى كتابي الى الرجل ، شيء ...

فشكراً لك ، وللنفر المأمول ، من اصحابنا ، من الذين تتوكأ ، فى رفع الرأس ، على اقلامهم ! واذا جاز ان يقال : ان هذه الأهلّة الميمونة ما برحت فى النموّ ، فانه من ذلك القول ، نفسه ، تقوم لنا الحجّة فى كمال منتظر ، تضيء به الجهات الأربع ، وتغرق ، فى اللألآء ، بلاد وامة !

اقرأ ، فى الأحايين ، اقوالاً فى التهاون بكم والازدرآء لأمركم • فيقال فيكم ان لا علامة ، فى الادب ، لكم ، وانكم تعنون بالصناعة عناية كبيرة • ولقد فات اولئك المطنطنين انّ التعامي ، فى باب اللغة ، من العمى ، وانه لكذلك هو فى باب الانصاف • فلعمرك ! ايّ راية ، للحق والجمال ، قد رُفعت ، فى ادب العرب ، فوق رايتكم ؟ وايّ علامة اجلّ منها ، فى العيون ، وهي التي جمعت لوني الدنيا الحبيبين ؟

امّا انكم تعنون بالأوضاع ، وبالديباجة ، التي لا غبار عليها ، فيا صدق التهمة ، ويـا نعم السبّة !! ولقد كـان قولهم ، هذا ، على شيء ، لو انكم انصرفتم الى المبنى ، دون المعنى ، كما كان يفعل غيركم ، فى جيل اللفظيّة ، الذي اشرف على عقبه • فأما وقد شققتم ملكوتاً لخوالج النفس ، وخطرات البال ، وسبحات البديهة ، رحباً ، مترامياً ، مـا بُريت لـه ، فى العربيّة ، من قبـل ، قصبة قلم ، فاللـه يسامحهم !

ولا ، والله ، لا اعرف كيف يعيَّر الاديب بطول اليراع ، وباتساع القدرة على الاداء الصبيح ، واللهجة العالية ! اللهمَّ الاَّ اذا عيِّر ذو الغنى بوفرة المال ، فى يده ... أضف كون هذا الادب اسمه : صناعــة الكلام ، وكون اللفظ لا يقوم الاَّ بالمعنى ، ولا يقوم المعنى الاَّ بأخيه ، اللفظ !

وانكم تعلمون ، ولا ريب ، ان اولئــك يتقاتلون على فتات موائدكم، فى الصناعة، ويلتقطون الذي عليه الفرشاش من دوياتكم ! فهم يملأون اجوافهم من فضلكم ، ويملأون افواههم من الكيد لكم ...

وليس هذا ، فى الدنيا ، بدعاً عجيباً ! فانَّ كلَّ زورق نزل البحر ، من موضع السلامة ، قد أكله النوتيَّة الهلكى بعيونهم ، من شدَّة الحسد ، ثم ألقوا فى طريقه مجاذيفهم . ولكن عند الميناء تحمد المغبَّة ! فغداً ينظر واحدكم الى البحر ، من ورآئه ، فاذا ، هناك ، مرآة صافية ، تتضاحك ، وتزدهي بنعمة الله ...

الحجر الذي لا يتكلم !

كتب به المؤلف الى صديق له ، من كبار اهل الفن ، في النقش .

رحمة الله على رونالبو روناتلي ! فاني لا اعرف ، فى شهدآء الصنائع الفائقة ، واحداً احق بان يُرحَم عليه منه . فلقد نسي روناتلي ، قبل ان يلبس كفنه ، ويُخرج به من بيته البارد الى قبره البارد ، لون الخبز ، وطعم المآء ، اياماً متعددة ... وقيل انه حين كُشف عن تجاليده ، فى موضع الدفن ، فى ضاحية « سراقس » ، ورأى من حضر ، من اهل الضاحية ، طراوة شبابه ، وما شغلتهم اعضآؤه ، بالنظر اليها ، عن السؤال عنه ، لحسنها ، ونعومة ما بها ، لم يبقَ هناك عين جامدة ، ولا قلب لم يتعطف !

وهأنذا اكتب لك فى قصة روناتلي الشجية هذه السطور ، ولا املك نفسي . ثم اني لا ادري ، من كثرة ما يهجم عليَّ من اخباره ، التي لا تفتح العين ، فى كتب السير ، على مثلها ،

ايّ خبر منها اسوقه اليك ، وكلّها نادر ، وكلّها مستجاد ، عليه طلاوة ، ورقّة هي اطيب تخلّلاً فى الصدور من المآء الصافي ! أأقول لك فى ميلاده ، عند شجرة الصفصاف ، على البحر ، فى « الجزيرة الصقليّة » ، حيث ألمّ المخاض امّه بالمجيء ، وكيف قضت اجلها من شدائد الوضع ، تحت الشجرة ، ام فى طفولته التي عاش ايامها فى انفراد ووحشة ، ام فى فقره ، ام فى غرامه ، ام فى حرمانه من لذائذ الدنيا — اللهمّ الاّ ما كان يجد من التسرية تحت الصفصافة ، كلّما تضايقت عليه نفسه، وجآء شجرة التذكار يبثّها بثّه ، ام فى آية حياته ، وهي التي احسب انها اعظم ما يعنيك من شأنه ، والتي من اجلها دخل اسمه فى طبقة العباقرة ، المنقطعي النظير ، من اهل النحت •

واذن ، فاني اردّك ، فى هذا الموضع، من سيرة روناتلّي، الى ما وقع لفلاّحي ضاحية « سراقس » ، بعد ان نفضوا اكفهم من ترابه ، ورجعوا ادراجهم • فلقد صادفوا فى بعض الطريق — وكان قرص الشمس قد انحدر ، واشتعل اللون الاحمر فى الجوّ — « سراقسية » اعياها المشي ، ويكاد يخرج الحزن من عينيها ، لفرط ما بها ! فقيل لها : ان قبر النحّات الوسيم هو فى جوار الرابية (واشاروا بايديهم الى جهته) • يريدون انه على بضع خطوات ، من ذلك المكان •

لكن الفلاحين ، كما تعلم ، هم اهل مسألة ، فلم يكتفِ اصحابنا ، مع الآنسة السراقسية، بسؤال وجوابه، ولاسيّما انهم قد رأوا فى يدها دمية بيضآء ، فى حجم الرأس مع العنق، تحملها فى رفق، واهتمام كثير. فقال لها واحد منهم :

« ــ انك اخته ، ولا ريب ! » .

وقال آخر :

« ــ بل انك ، فى ما يلوح لي ، خالته ! » .

وقال آخر :

« ــ لا ، بل انت عمّته ، واراهنك على هذا ! » .

وقال آخر ، وهو ينظرُ الى الدمية ، وقد بسط كفه فوق حاجبيه ، كالمستظلّ من الشمس :

« ــ وهذا ، طبعاً ، تمثال « لسيّدة سراقس » ، اعاد الله علينا من بركاتها، تأتين به القبر، كيما يرقد النحّات المسكين فى كنف « العذرآء » !

لكن الرجل لم يتمّ جملته ، هــذه ، حتى صاح عالياً ، وكأنه قد ذعر :

« ــ لا ، والله ! ليس هذا تمثال «السيّدة» ، ولا «رأس السيّدة» ! بل هو رأسك ، انتِ ، يا سيّدتي ! ولله كم تتصوّرين فيه للعين ، حتى انه ليكاد يتكلم بشفتيه ، هاتين، لولا قليلاً ... » .

فرأت الآنســة ان لا خلاص لهــا من الجماعة ، الاّ اذا افرغت لهم شيئاً ، من قصتها ، فقالت :

« ـ لست ، أنا ، اخت المسكــين ، روناتلّي ! ولا خالته ، ولا عمّته . بل انا بنت جار له ، بيتنا لصيق بيته . ولقد خطر له ان يصوّرني في الحجر ، فصنع هذه الدمية . فلما رآها استاذه ، اعجب بها كثيراً ، وقال : انها خير حجر برز لمشهد الحواسّ ، في يوم الناس ، هذا . الاّ انه اردف ان شيئاً واحداً يعوزها ، لا غير ! ولم يشأ في قليل ، ولا كثير ، ان يفضي الى روناتلّي بحرف على ذلك المطلوب . فكئب روناتلّي من التحسر على سرّ استاذه ، ومن اعمال خاطره فيه ، حتى اعتلّ ، وضني ، واطبقت عليه الحمّى . فقيل ، في ذلك ، لاستاذه ، فاسرع اليه ، وقال له : هوّنْ عليك ، يا فلان ، فانه لا يعوز دميتك ، التي افرغت فيها الحياة ، من اصابعك ، الا الكلام ... فاخــذ روناتلّي يتضوّر من شدّة الحمى ، وكان لــم يبقَ منه ، حينئذ ، الا رمق ضعيف ، فما رأى الذين شهدوا احتضاره الاّ وقد قام على قدميه ، وهو لا يقدر ، ولا يعي ، ثمّ أتى نحو باب الغرفة ، التي فيها دميته ، هذه ، فتمسّك بالباب ، وهتف بأعلى مــا يستطيع : تكلّمي ، يا دميــة ... ثمّ سقط ميتــاً ! » .

قصة الثلج

فى المدينة ـ فى هذه الغربة عن « الجبل » ! ـ يطرق خاطري الف ليلة ، من ليالي الشتآء الجبليّ ، عليها سلام الله ! فواحدة فى قعر واد ، وثانيـة خلف الشجر ، على هضبة ، وثالثة عندنا ، فى البيت ، الى آخر ما هناك ... وكيف لي ان اعدّدهـا ، كلّها ، وقـد انطوت بين يدي الماضي ، ليلةً فوق ليلة !؟ واصبحت اشبه ما تكون بكتاب غير ذي عنوان ، تحفظ مضامينه بالجملة ، لا بالحرف ، ولا بالصفحة ! فأقلّب ذلك الكتـاب ، فى بعض مطالب النفس ، واقنـع بالتصفّح ـ كأن المطوّلات من العبث ، وكأنّ النسيان من اللذّة ...

والليل على رؤوس الجبال ، غيره فى الشوارع ! فهو ليل السحر والاصدآء ، تقرب فيه السمآء من الارض ، حتى تكاد تسمع حركة الفلك ، فى بعض الجوانب ! او كأن شيئاً

يقع من فوق ... ذلك حين يكون الوقت صيفاً ، اما فى الشتآء فعندنا الريح ، والمطر ، والزّمهرير ، والثلج الابيض ! ليال شتآئيّة ، صحيحة النسبة . لا هذه الساحليّة المزوّرة ، التي تدبّ ، بلا صوت ، على الشاطىء . فان الجبل هو بيت الشتآء ، يرفع فيه الكلفة ، ولا يمسك عن رعدة ، تقهقه فى الجوّ !

ويا حبّذا الجبل تحت الثلج ! بياض فوق خضرة ، وكنز مغطّى ، يجمع اطرافه فى الخفآء ، حتى تجيء ايام الشمس ، فتسيل الفضّة ، ويطلع الفيروزج ... والثلج يد بيضآء ! تشرف عليه من نافذة بيتك ، وقد لفّ الارض بلون الفرح ، وطال حتى شجرة السرو السودآء ، ونقّطها باللؤلؤ ، فتحسب ان الدنيا قد بدّلت : كانت غبرآء ، فاذا هي بيضآء ، وكانت تفاريق ، ومقاطع ، فاذا هي بساط واحد !!

. . .

قلت لأمّ والدي ــ وانا ، يومئذ ، طفل أحبو الى الخامسة ــ وقد ادارت عينيّ ، من ورآء الزجاج ، الى ما صنع الثلج ، حول بيتنا ، بعد ليلة شتآئيّة ، طويلة :

« ــ يا جدّتاه : عجباً ! » .

قالت :

« ــ وممّاذا تعجب ، يا بنيّ ؟ » .

قلت :

« ــ ممّا فعل الثلج ، فى حديقتنا . فانه لم يبقِ فيها ، من وجه الارض ، شبراً ، واحداً ! » .

قالت :

« ــ وما تراه يهمّنا ، ما دام عندنا ، من ذلك ، فى البيت ، الف شبر ! » .

قلت :

« ــ كأنني بك قد أنسيت ما ذكرته لي ، منــذ ايام ، على ما كان من حمل الملائك الصغار لعمّي ، ووضعهم ايّاه فى الارض ، عند اطراف الحديقة ، فى موضع ، مساحته قيد شبر ، لولا قليلاً ! وكأنك لا ترين ، الآن ، ان الثلج ، فى الحديقة ، قد ذهب بكلّ شيء ... » .

فغامت عيناها ، رحمها الله ، وقفلت بي عن النافذة ، ثم صرفتني عن الكلام . فانه كان لي عمّ ، قد رجع الى ربّه ، وهو ابن سنة ، من العمر . وكانت جدّتي لا تجد فيــه سلواناً ، بل طالما هجت من حزنها عليه ، دون ان ادري ، اذ انا أثب ، من الفرح ، فى بعض ملاعبه ...

ولقد شغل ذلك الميت الصغير خاطري ، ايام الطفولة ، وساورني منه شيء ، كالهمّ ، فى حكاية قيد الشبر ، الذي ينام فيه ورآء الحديقة . اتذكّر ان جدّتي خرجت بي الى

الحديقة ، وقد انجلى وجه الارض ، بعد الثلج ، واقبلت الشمس ، كأنها الشعلة ! وكانت يدي فى يد جدتي ، تتمشّى تحت الشجر الملتمع . فعاودتني حكاية قيد الشبر ، وخفت ان ينتهي بنا المشي الى اطراف الحديقة ... فقلت لجدّتي :

« ـ الثلج ، يا جدّتي ، الثلج !! » .

فنظرت اليّ ، وهي لا تعرف ماذا عنيت ، ثم قالت :

« ـ تسأل عن الثلج ؟ هو قـد ولّى . وغـداً يجيء العشب ، وتخضرُّ الدنيـا ، واخرج بك ، فى الأطراف ، بعيداً » .

فلم اجب بكلمة . وكأنني احسست شيئاً ، كالخوف ! فامسكت عمّا كان يتضايق به صدري ، من حكاية الميت الصغير ، الـذي مسح الثلج على موضعه ، عند نهايـات الشجر ! ولكن جدّتي كانت فوق ما يوصف من حـدّة الذهن ، فلمحت ذلك . وكأنها تذكّرت وقفتنا فى النافذة ، وقولي لها : انّ الثلج قد ذهب بكلّ شيء ... فلم تتمالك حزناً ، خرج من عينيها ، فى قطرات كبيرة . ثم انها رفعتني الى صدرهـا ، وعانقتني طويلاً ـ تريـد ان تخفي عني حزازةً ، أثرتها انا بيديّ ...

واذكر ان المطر ، فى بعض الليالي الكانونيّة ، كان ينصبُّ على بيتنا ، فى جلبة وقوّة . وكانت الريح ، فى اثنآء ذلك ،

تصخب وتهضب ، ويُسمع لها ، في بعض المنافذ ، اصوات ، كأنها حزّ السكين ! فطاب الموقد ، في الزاوية ، بالف جمرة ، وبألف حديث على الخير الهاطل . وكنت في تلك الليالي ، من طفولتي ، لا اشعر بالدفء ، ولا احسّ بالنعاس ، الاّ حين يكون نصفي على المقعد ، ويكون رأسي في صدر جدّتي — وانّ الطفولة أدرى ، من غيرها ، بمواضع الحرارة ... فقالت جدّتي :

« — أسمع في الحديقة شيئاً ، كأنه الهدّة » .

فانقطع الحديث، حول الموقد ، حتى انه لم يبقَ ما يُسمع الا صوت النار . فقيل لجدّتي :

« — هذا صميم الشتاء ، والريح عاتية ، فتكون احدى الشجرات قد سقطت الى الارض » .

قالت :

« — بعداً لهذه الريح ، فهي كالزلزال ! واذا دامت الحال الى الصباح ، هكذا ، ذهب الليل بكل شجرة لنا ، في الحديقة » .

فتذكّرت حكاية قيد الشبر ... وكان العام قد انصرم عليها ، ونظرت من طرف عيني ، الى جدّتي — كأنني اومىء الى السرّ الذي بيني وبينها ! فادركت، بعد لحظات ، ان شيئاً يقف وراء لساني ، واخاف ان أطلع به . وكأنها

علمت ، رحمها الله ، ان الحديث على سقوط الشجرة ، والخوف على الحديقة ، قد نبّهني الى حكاية الثلج القديمة ... او كأنها علمت اني اهمّ بالقول لها ان المطر ارحم من الثلج ، بكثير ! فرفرفت عيناها ، هنيهةً ، ثم شدّتني الى صدرها ، تريد ان تصرفني عن تلك الفلسفة الحزينة !!

وكم حسرة فى التراب !! فلقد قضت جدّتي أجلها ، بعد تلك الليالي ، ببضعة اعوام ، وأوت فى وقار العمر ، وجلال الماضي ، الى تربة ليّنة ، ورآء الشجر ، على مقربة من الميت الصغير ...

. . .

ثم انطوى على ذلك ، فى الكتاب الذي لا عنوان له ، صحائف كثيفة ، ولم يبقَ فى خاطري ، من حكاية الثلج ، الا بضعة أحرف ، قد سلمت من المحو ، وعاشت على المعاودة ! حتى جآءت ليلة امس ، وماجت المدينة ، بين يدي المطر ، من رصفات الشوارع ، الى تلال الرّمل — على غير عادة الليالي الشتآئية ، فى المدينة . فلمّا كان الصباح ، أطللت من النافذة ، وطفلي الى صدري ، أنظر الى ما فعل المطر فى جوار البيت ، فاذا الشمس تتنقّل فى الحديقة ، واذا الورق الجديد نديان ، يلتمع تحت الشعاع ، وهو فى أمان

الله ــ حتى لأكاد اسمع منه حركة النمو ••• فتذكرت حكاية الثلج ، فى اوضح ما يكون التذكر • ثم ادرت عيني الى الرأس الصغير ، الذي يغلغل فى صدري ، من حذر التحديق الى اللألآء الساطع ، واذا الثلج ، على الحقيقة ، لا يذهب بشيء •••

ذكرى « الرومنتيسم »

« هذه بضاعتنا رُدَّت الينا » ...

كتب يوم احتفل « أصدقاء لامرتين » ، في بيروت ، لذكرى صاحبهم، بمرور مائة سنة، على تجويله في لبنان.

في عام ١٨٢٠ اخرج لامرتين ديوان « التأمُّلات » Méditations Poétiques ، فطلع على ادب فرنسة ريح جديدة ، وكانت ريح «الاصوليّين» قد ركدت ، الاّ قليلاً ، وتنسَّم الناس طيب جديد ، بعد Génie du Christianisme لشاتوبريان ، و De l'Allemagne لمدام ده ستايل. فطبَّق «الرومنتيسم»، بالديوان الجديد ، جوانب فرنسة ، وخفقت وهادها وحرجاتها ، تحت الريح الطالعة ، ودقَّت البشائر ، على اسم « الرومنتيسم » ، في تأريخ الادب !

و « التأمُّلات » مسمَّى يقع عليه اسمه احسن موقع ! فان حشوها خواطر على الكآبة ، والانعزال ، والالتفات

الى الماضي • كأنما قد اوحى بهـا ، الى صاحبها ، سمآء مشرقية ، صاحية ، غضّة الزرقـة ، تنبطح على الهضبات المنفردة ، وعلى عذبـات الشجر ، ومنعطفـات الدروب البعيدة ••• فجآءت « التأمّلات » آية « الرومنتيسم » الكبرى ، بعد ان كان شاتوبريّان قد خلع على الادب ، « برنه » ، الكآبة ـ أو مـا قيل له يومذاك : « مرض العصر » ـ واصبح « الرومنتيسم » بكآءً ، وشوقاً ، وتبرُّماً من تكاليف الحياة •••

أخرج لامرتين « التأمّلات » فكأنما هو قد نظم بها مجامع الادب فى سلك ! فعمَّ نسق « التأمّل » كـل بادرة ، من بوادر الكتابة ، ثم طفَّ على ذلك ، حتى لقد حلا لهم فى مجالس « القصر » ، وفى دارات اهل الادب ، والمجانة ، على ضفـّة « السّين » الشماليّة ، حيث السمر المعجُ ، والظرف الدافق ، ان يشيع ذلك النسق فى كل طور ، من اطوار المعايشة ، وفى اللبـاس ، وفى المطعم ، والمشرب • فعقدوا الزنانير لامرتينيّة ••• وكوَّروا صحاف الطعـام لامرتينيّة ••• هوس عرفت « المدينة » ، نظيره ، يوم قال شاعرنا القديم : « قل للمليحة فى الخمـار الاسودِ » ، وخرجت المدنيّات ، بعد ذلك ، وعليهنَّ الحبرات السود ! الا ان باريس قد غالت كثيراً ، ونفذ الامر ، عندها ، الى المشاعر ،

والاذهان . فكان الفتى منهم ، اذا خرج الى سربه ، تباطأ في مشيته ، فكأنما هو « يتأمّل » ، وتباطأ في كلامه ، فكأنما هو « يتأمّل » ! ولقد قيل في صحيفة Le Globe ، وهي ، يومئذ ، بوق « الرومنتيسم » ، ان زمر العشّاق ، تحت الشجر ، في غاب « بولونية » ، وعلى ضفاف « السّين » ، في الضواحي ، باتوا يروحون ويجيئون ، ولا حسّ لهم ، يُسمع ! فهم يتمتمون في البوح ، وبثّ اللّواعج ، تمتمةً ...

ذلك كلّه ، كان تقليداً لتلك النسمة المشرقية الهادئة ، التي نفخها لامرتين في الادب . وهي اشبه ما تكون — اللهمّ الاّ في الطريقة — بانفاس ابي العلاء ، والخيّام ، وحافظ الشيرازي ، ومن ضرب على وترهم ، في الكآبة ، والملل والتزهّد بالعيش — دعْ كونها مردودة ، في الطريقة ، الى ادب الاسبان ، الذي هو ، نفسه ، مردود ، كما تعلم ، الى ادب المشارقة ، أي جماعتنا العرب ، أضياف الأندلس !

ظلّ لامرتين ، من عام ١٨٢٠ الى عام ١٨٢٢ ، يتلألأ ، وحده ، في افق « الرومنتيسم » ، وتسجد الرّكب لكوكبه ، دون مزاحم ، الاّ ان الافق كان يهمّ بوهج جديد ، يكاد يتفتّق الرقيع ، بين يديه ، قبل ان يظهر ! فاطلّ هيغو على الادب ، يحمل ديوانه : Odes et Ballades .

وقد كان فى الظن ان ينزل هيغو منـازل صاحبه ، فى شرقيّة النفس ، والتخيّل ، والذّوق ، اذ ان باريس كانت لا تدين ، يومئذ ، الاّ لذلك اللون من المداد ! فجآء هيغو يهلهل الموشّح، والخرجات، والقوافي المتباعدة، على اسلوب الاندلسيّين . كأنه كان يخلع الشرقيّة على المبنى ، بعد ان خلعها لامرتين على المعنى.فصنع فى الموشّح تلك البواكير من شعره ، لعلمه ان الاندلسية ، على مغربيّتها ، مردودة الى الشرق ، فى كل شية من شياتها. فدار لديوانه فلك القريض، فى اوروبة ، واصبحت ديانة الخيال ، به ، وبصاحبه لامرتين ، فى وثنين معبودين !

كذلك ظلّت الحال ، فى الادب الفرنسوي، عشرة اعوام ، على التوالي : يصدح لامرتين فى ناحية ، ويصدح هيغو فى اخرى ، وتترنّم باريس ! فغمر الطرب الدنيـا ... وكان اعجب ما فى ذلك الغنآء : صدوره من بلبلين ، يشدوان فى مغرب الارض ، بمحاكاة الانغام التي فى مشرقها ! فتلفّتت اوروبة الى مطلع الشمس ، وازدحمت ربوعنا ، بين بيروت ، والجبل ، ودمشق ، وبيت المقدس ، بالسيّاح ، والحجّاج ، والمنقّبين .

ولا يقف الامر ، بعد ذلك ، ههنـا ، بل ان احد هذين

البلبلين يطير الينـا ، من فرط الشوق ، يأتي يشتفُ من ينابيعنا ، ويحطُ على الظلّ ، والمـآء ، هنا وهنا !! ففي غدوة مباركة، من عام ١٨٣٣، لاح، تحت الشراع الفرنسويّ « السست » ، في مرسى بيروت ، وجـه ضيف ، عليـه المخايل ••• لامرتين ينزل علينا ، في بيروت ، وفي بلاد الجبل، وفي دمشق،وحلب، وبيت المقدس، ثم يطوّف بالقسطنطينيّه، على الخليج ، بين آسية واوروبة ، فكأنه طائر « اليوبيك » ، في بعض الخرافات التركيّة ، وهو الذي يحمل التحايا ، في البوسفور ، من ضفّة الى ضفّة !

وبعد ، فهذا هو الشرق : ترابه لحوم واعظم، وامم ثاوية، متراكمة ، بعضها فوق بعض ••• وحجارته فهارس ازمنة ، تختلف عليها الرياح ، وتأخذ ، وتبقي ، فتحيا امة بحجر ، كما قد قيل ، وتموت بحجر امة اخرى ! فجماله جلال ، على ان الينابيع توسوس بالمآء ، والشجر يصفّق بالورق ! ونهاره الطالع، انّما هو عشيّة أبد، على ان الصحو مغضّ ، والالوان طريئة ، بين الارض والسمآء ! مقبرة في جنّة ، ومنـاحة في عرس ، وسواد في بيـاض ••• فنزل رسول « الرومنتيسم » على اهله !

ولقد لقي « لامرتين » ، ههنا ، مهداً للاحلام دافئاً ، بل لقي ان « الرومنتيسم » صحيفة ، من هـذا الديوان

الشرقيّ الحافل ، صغيرة ، وانّ الكآبة ، نفسها — وهي آية « الرومنتيسم » — شجرة غرسها الله ، تحت مطلع الشمس ، فبسقت ، ومدّت الظلال فوق ارضنا ! فعبّ الرجل من هذه الينابيع الخياليّة ، ما شآء الله له ، وملأ ما بين صدره وفمه . حتى اذا انقلب الى قومه ، كان كالعائد من الواحة : حشو وطابه حياة ، واخضرار !

فشاع فى « الرومنتيسم » ، من جديد ، شرقيّة على مثل دأب الرياح : هبوبها من هنا ، ومهفاها هناك — وكان هيغو ، قبيل ذلك ، قد اخرج ، فى عام ١٨٢٨ ، «المشرقيّات» Les Orientales ، وطفق لامرتين ، بعد ايابه ، يزفّ شرقيّة ، فى الشعر ، بعد أخرى ، مثاله : « القفر » ، و « سلطان » ، و « الجواد العربي » ، و « الحسنآء ذات النارجيلة » ، وأخواتها — فخفقت باريس برياحنا ، وظلّ امرنا فى «الرومنتيسم» على ما ترى، حتى طوى، فى اوروبة، بساطه.

وهكذا كتب لنا ، فى تأريخ « الرومنتيسم » ، ان يكون فى عنق لامرتين ، وهيغو ، يد ذات بياض ، لا علم لاهلها بها ! كما كتب لنا ، ايضاً ، بعد عشرات السنين ، ان تتهادى الى ادبنا رياح غربيّة ، طيّبة ، فنستوقفها ، ونتنسّم الطيب ، ونعجب له ، على ان الريح مرجوعة ، والأرج مردود !

فهنيئاً ، لأهل « الرومنتيسم » ، ذكره المنتشر ، وريّاه

المتضوّعة ، وقد جاب كرة الارض ، وعطّر الآفاق ! وسلاماً على مراقدهم ، كثيراً ، يجيئها من مطلع الشمس ، من ارض الكآبة ، والتأمّل ، والالتفات الى الماضي •••

الفصح في الوادي

« ... وقام من القبر الثان : يسوع والربيع ! » .

فى قبة الجبل ، فوق الوادي ، كأن ناقوساً تحرك ... فصوته يتدحرج على الشعفات والذرى ، فى الصخر ، وفى العشب الجديد . حتى اذا انتهى الى مغامض الشجر ، فى الوادي ، غاب فى الاعماق والسواد ، وتلاشى فى صيحة الماء البعيد ... صوت للنحاس ، مجلجل ، فرح ، يوقظ ، فى هذه الساعة الفجرية ، من لم يفق من نومه ، على وداع الراحل الأسود !

اما الضياء فانه لم يصل ، بعد – لم يصل الصباح على جواده الاشقر ، وهو الراكب المجد ، الذي يقدم ، الآن ، من طريق الهضبة !

وهذا قمر الصبح ، وقد اضحى ، بعد مضي العتمة ، كالمرآة الزاهية ، ولا وجه فيها... واين توارى ذلك الوجه

الملألىء ، الجبيب ؟ عجباً ! أتكون الليلة ليلة «سبت الثور» ، وهي التي اسفرت عن هـذا الصباح الزاهر ، ثم يضحي القمر لا نور له ، ولا سنآء ! فجنح الى منحدر الجنوب ، وعلى المنحدر آلآف مـن نقط بيض ، او حبوب بيض ، او نجوم ، تهمُّ ان تهوي ...

فتحرَّك الناقوس ، فى بعض القرى ، على كتف الوادي . هذه ثاني مرَّة ، يدعو فيها الى قدَّاس العيد ، بعد ان وصل الجواد الاشقر ... فقام الوادي ، فى ضجَّة النحاس ، على قدميه ، وخلع الجبل ثوب الليل ، ورفع رأسه ، وخرجت الصخور ، ووقف الشجر ، وأبدت المغامض اسرارها ، وعاد الوادي بالقرى المعلَّقة (وكأنها الصُّوَر) ، وبالشعاف العالية (وكأنها التماثيل) كنيسة فخمة ! فمن صحن الكنيسة الى عليآئها بالمذبح ، عند صدر الهضبة ، أغطية بيض ، وخضر ، وصفر ، وادراج ، واعمـدة ، وشماعدين ، يركز عليهـا الشمع ــ سبحان صانعها! ولم يبقَ الا ان تشعل الشموع ، فاشعلها النهار ... ويا طيب ما يصعد ، فى جوف الوادي ، من دخان عاطر ، ينطلق من بعض البيوت ، فكأن لا يزال ، فى الدنيا ، من لم يصدّق ان الشتآء قد ولَّى ! دخان يعتلي ، ولا ينحطُّ ، فان هذه السمآء العـالية تقبل البخور ، عن طيبة خاطر !!

وفى الكنيسة جماهير من المؤمنين ــ رعاهم الله ! يقفون فى الوقار ، والسكينة ، وادب العبادة . رجال ونسآء : فهنا صفٌ من الصنوبر ، فى ملامح الفلاّحين ، ومتانة عضلهم ، وشدّة الواحهم . وهنا صفٌ من الشربين ، فى مثل الملاحة النسويّة ، وفى اللين ، والطرآءة . أيسر النسيم يحرّك هذه القامات الرقيقة ، والشملات الناعمة ، ويرسل اصابعه فى خصل الشعر ... ولكن سيداتي واقفات ، الآن ، فى الكنيسة ، فى القدّاس الدائر ، فلا يطمعنّ احد بتحريك شجرة ، واحدة ، منهنّ ! فانما هذا الوادي لبنانيٌ ، يقوم فى بعض المواضع ، من بلاد الجبل ، وليس ، فى الدنيا ، اكرم ، على الله ، من فلاّحة لبنانية تصلّي ...

ثم يضجُ الوادي ، من قعره الى حافته ! فلقد هبّت ، فى الصبح ، رياح الربيع ، وامتلأ الوادي باصوات السيول ، والشجر ، ورشّ الزّهر ، وبما يقوم ويقعد على كل رابية ، وفى كل قرارة . وثمة ما شئت من اصوات النواقيس ، فى القرى المجاورة . فيكاد يغرق الوادي فى الانغام السمآئيّة . يهتف بها من لا تراه العين ، من عباقرة المرتّمين ، فى الكنيسة ، من يونان ، وسريان ، ولاتين ...

ولقد نظرت ، انت ، فاذا فى صحن الوادي ، عند نهايات البسط الخضر ، آلآف من النقط السود ، تروح وتجيء ،

بين البيوت ، فى قرية هنـــاك ، ثم تجتمع كالعجاجة ، ثم تتفرّق كالنمل ، لا تقف عن حركة ، ولا تكفّ عن كلام . فكأنها لا تتّقي الله !! ماذا ؟ أتراهم لا يذكرون انهم بالعتبة، من باب الكنيسة ، وان القدّاس دائر ، والصلاة قائمة ؟

وههنا يقطع عليك التأمّل ، فى الناس ، ما فجأك من حركة عظيمة ، سجد فيها الوادي ، واهتزّ الصخر ، وطأطأ الشجر، ووضعت الازاهر رؤوسهـا ، فى الارض ، وصاح المآء ، والهوآء ، من كل جانب . فانّ الكاهن العظيم ، المتواري فى كنيسة الوادي ، قــد رفع ، فى الجوّ ، ذلـك « القرص المدوّر » ... فطلعت الشمس المباركة ، وقــام من القبر اثنان : يسوع والربيع ...

ترجمة الشعر بالشعر

« الجبل الملهَم » : ديوان ، شعريّ ، أصله قصائد ، فرنسويّة اللسان ، للاستاذ شارل قرم ، نقله الى العربيّة « معتزل » ، وهو من افاضل الرهبان اللبنانيّين .

وقد سأل « معتزل » المؤلف أن يقول في تلك الترجمة ، فكتب اليه :

يا أخي :

نقل الخاطرة الى الصحيفـة ـ أي التعبير عن خوالج النفس ، بالحروف ، وتصويرهـا بالحبر ـ هو ، بنفسه ، محاولة امر منيع ، ولا ريب ! حتى لقد هتف شاعرهم ، في مصر ، بقولـه : « يا ليت شعريَ ! هل قلتُ الذي أجدُ ... » ، فكيف ظنّك بنقل الخواطر ، من لغة الى لغة ، واجلائها عن مساكنها ، وانزالها في جوّ غريب ؟! بل كيف ظنّك بنقلها ، حين تكون ، في الأصل ، مدوّنة على حكم الوزن والقافية ، ويكون الشرط ، في النقل ، ان تدوَّن على حكم الوزن والقافية ، ايضاً ؟! وانت تدري ان الالفاظ ،

فى باب الشعر ، غيرهـا فى باب الكتـابة ، فهي ، ههنا ، لا تولد عريانة ، بل يكون عليها ، من مادّة الشعر ، ومن احواله ، وافعـاله ، وهو يعبر الجسر الى الورق ، الف قميص ! وان نقل هذه الألفاظ الشعرية ، من لسان الى آخر ، هو فوق الامكان ، وان تجريد المعنى الشعريّ ، فى النقل ، من قمصان ألفاظه ، وازاحته عن الميزان الذي قـُطّع له ، والقافية التي مُهّدت بين يديه ، وتغريبه عن جوّه ـ اضف مسألة الذوق ، من جهة الطرائق الشعرية ، فى لغة قوم ، واختلافها فى لغة قوم آخرين ، بل اضف ما ينبغي للمعنى المترجَم ، من قمصان ، غير قمصانه ، ومن ميزان ورويّ ، غير ميزانه ورويّه ، ومن جوّ وذوق ، غير اللّذين كانا له ، فى لغته ، اقول : ان هذا وذاك هما ممّا يجعل ترجمة الشعر بالشعر مطلباً ، لا تصل اليـه مقدرة ! وانما غاية المطمع فيه محاكاة الاصل ، فى اضيق ما يقع معنى المحاكاة .

وما بلغنا ان احداً من اساطين القلم ، فى مغرب ومشرق ، وفى قديم وحديث ، من الذين تجرّدوا لترجمـة الشعر بالنثر ، فضلاً عن ترجمته بالشعر ، قد ادّعى ان المسألة على حبل ذراعه ! هذه الياذة هوميروس ، وهي التي نقلت الى مختلف لغات البشر ، قد صيح ، فى كل أرض ، ان فى صدور القرّاء ، من تقصير ترجمتها عن الأصل ، وعدم

استيفآئها لما بعد ودنا ، من ذلك البحر اليونانيّ العظيم ، تحتُ اشيآء كثيرة ، وليس ، هنا ، محلُّ الافاضة فيها . بل انظر الى الترجمة العربية ، التي اخرجها البستاني ، وهو من هو في معرفة هذه اللغة ، والقآئها اليه بمفاتيح اسرارها ، واعنّة بلاغاتها ، دعْ تمكّنه من ثماني لغات ، والمامه بخمس — فيكون جدآء الحساب ، كما ترى : ثلاث عشرة لغة ، بين تمكّن والمام ! — والتي انفق على نظمها سبعة عشر ربيعاً ، وقيل فيها انها خير ترجمة ، على الاطلاق (لم يستثنوا ترجمة « وُلف » ، ولا ترجمة « داسيه » ، وهما هما ، في البراعة ، والصحّة !) ، فالترجمة العربية ، على كونها منقطعة النظير ، في القرب من الأصل ، لما تيسّر لصاحبها ، فوق كل اولئك ، من قيام القرابة ، بين اليونانية القديمة والعربية ، لا يستطاع القول فيها : انها مرآة للأصل . بل غاية ما يمكن قوله : انها اتيان بشيء يشابهه ، ليس غير !

وعلى ذكر البستاني ، معرّب الالياذة ، اتذكّر اننا كنّا ، ذات مرّة ، في زمن التحصيل ، نسمع على شيخنا ، صاحب « البستان » ، طرفاً من علم الحروف ، الذي كان الشيخ قد توجّه ، يومئذ ، الى استخراج مخبّآته ، وتتبّع دقائقه ، وجعله ، في العلوم اللغوية ، باباً قائماً برأسه . وكان الكلام على حرف الحآء ، وما يتضمّن ، في بعض مقامات القول ،

من معاني السعة ، فساق لنا الشيخ ابيات كثيِّر : « ولما قضينا من منىً » ، وهي التي فيها : « وسالت باعناق المطيِّ الاباطحُ » ، قال : « فلو كانت أباطح ، هذه ، أباطم ، أو أباطر ، أو أباطق ، او شيئاً آخر ، من الحروف ، لما سالت البطحاء باعناق الابل ، فى الشطرة ، هذا السيلان ... » .
فان كان هـذا هكذا ، ثم دار بنفس احدهم ان يتعرَّض لترجمة الشطرة ، ببعض اللغات ، لرأينـا ان قد أعيا عليه الاحتفاظ بما فى الأصل من التجاوب ، بين اللفظ والمعنى ، وان قد ضاق ذرعه بحاء أباطح ، التي هي نكتة المسألة ، هنا ، وقتل بحرف واحد ...

وهذا مثل قريب ، كما ترى ، على ان النَّقل من لغة الى لغة ، بما هو مفهوم من معنى النقـل ، مطلب مستحيل ، لا تبلغ اليه وسيلة . على ان فى الترجمـة ، عامَّةً ، وفى ترجمة الشعر بالشعر ، خاصَّةً ، من اسبـاب الامتناع ، ودواعي الاستحالة ، بين تفاوت لغات ، واختلاف اذواق ، وتبدُّل قائل بناقل ، والهام بنسخ ، وابتداع بمجاراة ، ما لا يخفى عليك ! فاما ان يقال ان الترجمة ، فى الجملة ، هي مشارفة لأصل ، واتيان بفحوى ، فذلك كلام ينقطع فيه الجدل .

فانظرْ ، يا حفظك الله ! ايَّ شيء قد حدَّثتك به نفسك ،

فى هذا الكتاب ، الذي عرّبت فيه طائفة من خارجيّات صديقنا « ابن الجبل » البارّ ، الاستاذ القرم !! اللهمّ ، الاّ اذا كنتَ قد تذكّرتَ ، فيه ، انك لا تحصي ، ولا تستقصي ، بل تخلّص وتلخّص ، وتمشي بالتقريب بين لغتين ، والتوفيق بين ذوقين ، ما امكن التقريب بين عربية وفرنسوية ، والتوفيق بين شرقيٍّ وغربيٍّ ! فاما على هذا الشرط ، الذي كلّفك ، ولا ريب ، خطّة شديدة ، آجرك الله عليها ، فانك قد وفّقت الى غايـة ، ليست بيسيرة ! فها هنا محاكاة لفحاوي الأصل، جاءت على قدر، ثم اداء جزل، يرجع الى ذوق ، وملكة ، لولا ما استحال عليك ، فى بعض المواضع ، مـن تسخير المبنى للمعنى ، وتسخير المعنى للمبنى ، ومن تقريب الشقّة بين متعارضَين فى الذَّوق ، متناكرَين فى الرُّوح ، ولولا ما تضايق به قلمك من اشتداد التسخير والتقريب ، حتى لتلجأ ، فى الجمل والقرائد ، الى الفصيح ، وعندك الأفصح ، والى الرُّخصة ، فى العروض ، والضوابط ، وعندك القاعدة . الاّ ان ذلك ، وان كـان يدخل التهمة على توقيرك للأوضاع ، وعلى توفّر حظّك من عالية الفصاحة ــ وانت المبرّأ ، بحمد الله ــ فهـو لا يستطيع ان يذهب بما لك ، فى هذا الكتاب ، من فضل كبير ! وبحسبك فيه ، انك قد حملت الى بني قومنا هذه

القطع ، من الرياض الحبيبة ، وهي التي سقاها غيث لبنانيّ ، وحواها جوّ فرنسويّ ، وانك سقت اليهم هذه النفحات العربيّة ، التي لا ينقطع ، فى الديارات اللبنانيّة ، موسمها المبارك ...

وداع اندره جيد

هي الخطبة ، التي القاها المؤلف ، في « معهد الآداب العليا » ، في بيروت ، مودّعاً بها ، باسم ادباء اللبنانيين ، الكاتب الفرنسويّ المشهور : أندره جيد .

أيها الاستاذ العظيم :

فى ساعة فجريّة، من يوم غد، تسير بك المركبة الهوائيّة، فى سكك الجوّ ، على كفّ العناية ، فتلتفت اليهـا ، من لبنان ، الوف الخواطر ، وتسايرها بالعطف والحبّ ، حتى تقطع من مشرق الى مغرب ! فان على «بساط الريح» ، هذه المرّة ، « سليمانيّاً » حبيباً ، يحرّك ، بين اصابعه ، آلة للسحر ، هي من اعجب آلات الفصاحة !!

ويا سيدي :

هنيئاً لنا نقلك فى ارضنا ، وغدواتك بها ، ثم هنيئاً لك ، انت ، فانك نزلت أهلاً ، وغادرت أهلاً ، وتمّ لك ، عندنا ، ما أراده شاعرنا القديم ، بقوله :

ان يفترق نسبٌ ، يؤلّف بيننا
أدبٌ أقمناه مقـام الوالدِ

وفى الحقيقة : ان جُزُر الفكر ، على بعد ما بينها ، تحت السماوات ، هي اقرب محلاً ، بعضهـا من بعض ، وأدنى نسيماً وأهويةً ، مما يصوّره اهل الجغرافية ، والتخطيط ! وما ظنك بلفظة ، يقولها قائلها ، فى بيت غامض ، فى قرية غامضة ، فى بعض اطراف الدنيا ، فتطير من قارّة الى قارّة ، وتنتظم الأقاليم ، وتأتي الأمصار ، واحداً بعد واحد !

فللّه ما أقرب المدى ، بين اوطان الناس ، بل مـا اقرب الناس من الناس ! فكأنّ كرة الارض قد أصبحت ، بين يدي الواحد من أهل الحروف ، أصغر من دواة الحبر ...

ويا سيدي :

بحسبك من الفتح الفكريّ ، فى هذه الارض اللبنانية ، التي ترجّ بأصداء الفصاحة العريقة ، ان من لفظاتك مـا يجري مع النَّفَس ، فى أفواه نابتتنا ، حين يتكلّمون على الحق والجمال . فلقد طابَ لهم ، من الجلب الاوروبيّ ، بضاعة « جيديّة » ، هي من خير ما وُسق اليهم ، فى زمانهم ، من وطن « راسين » ، ورأوا ، هناك ، عجباً كثيراً : كاتب يشدّ على الطريقة الاصوليّة بالنواجذ ، وكـأنه لا يترك خيط ذوقه ، ثم انه يكدّ خاطره على خزانة الوحي ، وكأنه

لا ينفض الا محتوى جيبه ، ثم يطلق قلمه فى مخبآت الناس ، وكأنه لا يُعنى الا بنفسه ، ثم يتجرد للمسألة المنحجبة ، وكأنه لا يهتمُ الا بلذة التفتيش ، ثمُ يقبل على محاسن الطبيعة ، يمرّغ عينيه فى اصباغها ، والوانها ، وكأنه يشرف على الاشياء من خلف الزجاج ، فى النافذة العالية ... وهو ، فى كل اولئك ، ملتبس واضح ، ومرتاب موقن ، وطلق كاسف ، ومداعب جادّ ، كثير الجدّ ، فى آن معاً !!

الله ! الله ! فى ذلك النسق « الجيديّ » ، ذي الأسرار ، التي أرسل عليها حجاب الفن ! نسق الاساتذة ، الذين لا تطوى كتبهم ، ولا تخفض بلاغاتهم ، ما دامت مسامير الفلك فى خير ...

فيا ايها المسافر ، المقيم :

سلام عليك فى باريس ، وفى بيروت ، وفى كل أرض ، يعمل فيها الناس على الحقّ ، ويتولّهون الى الجمال ...

بين الكرة والطست ...

فى الأخبار اليونانيَّة : انَّ أرسطو بلغ به حبُّ الدَّرس حتى ليخشى النُّعاس، بعد نومة ، من الليـل ! فكان يمسك ، بأطراف أصابعه ، كرة من نحاس ، فوق طست من نحاس ، فاذا أخذته سنة خفيفة ، سقطت الكرة ، فطنَّ الطَّست ، فأيقظه ـ وهكذا حتى يطلع له الصبح •

خواطر في أوانها

موضع الشعر من الفنون

هل الشعر من فنون السمع ، كالموسيقى ، ام انه من فنون البصر ، كالتصوير ؟

هذا سؤال لم تتفق الكلمة ، فى الجواب عليه ، بعد . فانه اذا قيل : ان لا بدّ ، فى الشعر ، من التلفظ ، أي من الهيئة والشكل ، قيل ، فى الردّ : انه لا بدّ فيه من النغم ، ايضاً ! فكأنه ، بذلك ، يبيت من فنون البصر ، والسمع ، فى وقت معاً — ومن هنا جآء سرّه العجيب ...

حياة الكاتب

ليس من الخير ، للكاتب ، ان يُنبش ، عن أحوال حياته ، خارج كتبه ! فان أحسن أخباره ، هو هذا الذي وضعه ،

بيده ، فى تضاعيف مؤلّفاته . اما الباقي ، وقد أرسل عليه حجاب الكتم الشديد ، فأيسر ما يقال فيه انّ معرفته لا تفيد الجمهور شيئاً .

فاما اصحـاب التراجم ، وهم الذين يتقاتلون على خبر يطيّرونه ، فانّ لهم من الاحاديث ، التي يزوّقها الكاتب عن نفسه ، مستغنىً عن الاختراع – لهم ، هناك ، مادّة للنسج، والفتل ، وافرة ...

الشعر والموسيقى

لا جرم ان قيام هذه الاوزان ، فى الشعر ، هو من سوء حظّ الشعرآء ! فان الشعر بأوزانه (أي بأنغامه) يتّصل بالموسيقى اتصالاً مكيناً . ومن هنا يظهر ان باب الشعر غير باب المعارف ، وان التوفيق ، فى النغم الشعريّ ، انّما يقع بلطف مخزون ، لا بكدّ خاطر ، ولا باعنات نفس .

مصيبة السخرية

السخريّة البارعة ميزة كتابية ، محبّبة ، ولا ريب ! الاّ ان الكاتب ، الذي رُزق هذه الخصيصة الشهيّة ، هيهات ان تقبل عليه القلوب ، ما دام فى الحياة . فكأن الشرط فى حب الناس ، لذلك الذي أوتي محـابّ القلوب ، هو ان

يكون قد دُلّي في قبره ...

الشرط القديم

كان الشرط على من يريد التكلّم بلغة الآلهة ، أي بالشعر ، عند قدماء الاغريق ، هو ان يستطيع التكلّم بلغة الناس ، اولاً ... وفي الشعر ، اليوم ، لا يزال ذلك الشرط الاغريقيُّ قائماً ! فانه لا بدَّ للشاعر ، في الاقلّ ، من معرفة الاوضاع — من معرفة النحو والتصريف ، مثلاً ...

موضوع الأدب

من نعم الله على الكاتب انه لم يُفرض عليه ما قد فُرض على المؤرّخ . اذ انّ سوق الحقائق ، بعجرها وبجرها ، هو من أهمّ الأغراض في باب التأريخ ، لا في باب الادب .

عصر السرعة

في زاوية الحقل ، حين يكون للارض ضحك ، وتهلّل ، وللعندليب تنغّم ، وللماء على النبت نقط ، كنقط العنبر ، تسأل فيك الفلاّحة اختها ، بينما تكون ، انت ، في بعض الطريق :

« — ما عسى ان يكون هذا الرجل ! فان على خطواته

شيئاً من مشية ساعي البريد ، وليس هو بالساعي ، ولا في شارته ذلك ... » .

ثم يتّفق الرأي ، عند هاتين الاختين ، على انك كاتب لباب كذا ، في جريدة كذا ، تمرّ بآثار الربيع ، بين شعاب الأودية ، ومعاطفها ، فلا يستوقفك فلّ وضيء ، ولا أقحوان مفلّج ...

المعاصرة

عندي ، من الرأي ، لجماعة الكتّاب ، من أهل زماننا ، ان يكفّوا عن الخروج الى المجالس ، والترائي للجماهير . فان احترام الماضي ، والاعجاب بالموتى ، همـا من الطباع المركّبة في صدور الناس ، لا طاقة لهم بجعلها غير ما هي ! ثم ان هذا ، كلّه ، يدخل في فضل غياب الوجوه ...

اللّغة والأدب

اللّغة هي مادّة الكتابة ، ولا ريب ، لكن الوقوف على اللّغة ، دون المعرفة بفنون التصرّف بها ، في باب تصوير الخواطر باللّفظ ، لا يجعل احدهم كاتباً ، ولا شاعراً .

اذا كانت اللّغـة هي الثوب ، فأين البدن ؟ واذا كانت البدن ، فأين الرّوح ؟...

١١٧

الينابيع المنقطعة

قضيّة الحب ، بازآء الادب ، من القضايا التي يجب لها فحص ، وتدقيق نظر .

كان الحب ، في ما مضى ، من ايـام الناس ، يدور على الشوق ، والحرقة ، وشدّة الوجد ، فأصبح ، بفضل هذه المصاير العصرية ، اجتماعـاً ، ووصالاً ، وترويح قلب !

وكان يقال : « فلان يدور حول بيت فلانة » ، فاصبح يقال ، اليوم : « فلان عند فلانة » ــ لا اقلّ ، ولا أكثر ...

وهذا ، في مـا نحسب ، لا يقع في حظّ الادب . فان التباريح ، والصبابات ، والتعاج خواطر القلوب ، هي ينابيع من المعاني ، شهيّة ، رخيّة ، وليس فقدانها بالشيء اليسير !

الكتابة الوسط

الذين يقولون بالكتابة الوسط ، وهي التي يُجمع فيها بين غرار الفصاحة ، وسقط المتاع ، ليلذّها ، في رأيهم ، من هو فوق ، في الجمهور ، ومن هو تحت ، انّمـا هم يقولون أن تصبح « هملت » ، مثلاً ، مفضّلة على ذوق البدّالين (أي باعة المأكولات) ، من جهة ، وذوق تلامذة « اوكسفورد » ، من جهة أخرى ...

مسكين شكسبير ! ما كان أنكد حظّه ، لو قد عمل ، في

« هملت » ، برأي هؤلآء …

الأدب والحب

الادب كالحبّ : اوّله تطلّع الى الآتي ، وآخره التفات الى الماضي …

قضيّة اللّفظ

من سوء حظّ الذين لم يوفّقوا الى اللّفظ البارع ، فانصرفوا ، على كره منهم ، عن الصباحة في الكلام ، أن ليس في معاجم اللّغة ، لفظة ، واحدة ، وهي لا معنى لها !

الأدب والحياة

يلوح لي ، في بعض المواضع ، ان الحياة اكبر سنّاً من الادب ، بقليل …

مادّة الشعر

قال الشعر لميزانه ، يتأفّف به ، في وجهه :

« ــ لك الله ، في هذه الكفّة التي لا تفتأ ترتفع ابداً ! أضع فيها رطلاً ، من حبّ الحقيقة ، فلا تحطّ الى الارض » .

فقال الميزان :

« ـ لا تعجب لذلك ، فلست انا ميزان العلم ! » •

قال الشعر :

« ـ واضع فيها رطلاً من حبّ الله ، فلا تحطُ » •

فقال الميزان :

« ـ ولست انا ، ايضاً ، ميزان التقوى ! » •

قال الشعر :

« ـ واضع فيها رطلاً من حبّ الطبيعة ، فتهمُ ان تنزل ، لكنها تكاد لا تهوي حتى تشيل ثانيةً » •

فقال الميزان :

« ـ واذن ، فلك عندي ، من النصيحة ، ان تضع فيها ذرّةً من حبّ الجمال » •••

الطريقة « الأزهريّة »

الطريقة « الأزهريّة » ، فى الكتابة ، أشبه شيء بالعمل اليدويّ الشاقّ !

قضيّة الموضوع

« قضيّة الموضوع » لم ينتهِ فيها الى كلمة متّفقة ، بعد • فريق يشترط جلالة الموضوع ، وآخر لا يلتفت الى جلالة ، ولا الى تفاهة • وهؤلآء يقولون ان القيمة للاجادة ،

لا غير ، وان الكلام ، فى هذا الباب ، مثلاً ، على ترآئي نابوليون للملوك، فى اوسترليتز ، هو والكلام على اسكاف، يخصف نعله ، بمنزلة سوآء !

الكتابة الغفل

« النظر الى ما قيل ، دون النظر الى من قاله » ، هو ميزة من ميزات زماننا • بها نباهي ، وبهـا ندلّل على رقيّنا ، وافضآئنا الى حقائق الاشيآء • ولكن لهذه الميزة العصريّة مساوىء متعدّدة ، واوّلها فقدان الثقة عند القارىء • فانّ معرفته للكاتب ، وطبقته ، واحاطته ، او انقطاعه لضرب من ضروب العلوم ، او الآداب ، او الفنون ، ليست ، عنـد القارىء ، بالشيء القليل !

هذه الألهيّة

أيقولون : « ان الأدب ألهيّة لذيذة ، لا غير ••• »، بينما هذا الطائر البلبل ينثر صيحاته على الصباح الممرع ، فيمتلىء بصوته ، ويكمل به جماله ؟! ــ فكأن الصباح فراغ أخضر ، حتى يهتف هو •••

احسبوا هذه الزّقزقة الآدميّة (وهي آثـار القرائح ، ومحصّلات الخواطر !) انها باللّذة ، والتّطريب ، وهزّ

الجوانح ، ملء دنيا ، وتكملة حياة !!

قضيّة الجمال

الابتسامة ، فى « الجوكوندا » ، آيتها فى نقلها ، لا فى أصل ملاحتها •

وهكذا الجمال ، فى الادب ، لا يُشرط ان يكون بنفسه جمالاً •••

الجمهور

فى مسائل الأدب ، يسمع الجمهور بعينيه •••

ألف « أرسطو » مجتمعين ، لا يساوون « أرسطو » واحداً ، منفرداً !

يصفّق الجمهور للاسهاب ، لأنه يؤثر الاختصار •••

الكاتب الذي لا يبالي الجمهور بـه ، هو الذي يبالي بالجمهور •

بليّة الأدب

أعظم بليّة ، على الادب ، فى كل أرض ، أن ليس مكتوباً فوق بابه ، ما يُكتب ، فى العادة ، فوق بعض الابواب ، فى دواوين الحكومة : « الدخول ممنوع على من لا له شغل

رسميّ » ...

الكتاب الثلاثة

ان الكاتب الذي يصف لك جيشاً ، رآه في بعض الطريق، فيقول : « رأيتُ مائة وخمسين رجلاً ، عددتهم على أصابع كفّي ، هذه » ، لهو كاتب صادق ، ولا ريب ، بل هو أجدر الكتّاب أن يغدو « كاتباً عدلاً » ...

اما الكاتب الذي يصف لك ذلك الجيش ، بقوله ، مثلاً : « وجيش كموج البحر ... » الى آخره ، فهو كاتب يكذب، كما ترى ، لكنّه لا يعرف كيف يجيز عليك الكذبة ...

فاما اذا جآء دور ابن بجدتها ، فانه يقف بين يديك ، ويغرز عينه في عينك ، ثم يقول : « عجباً لرفيقيّ هذين ! فلقد كنّا ، نحن الثلاثة ، في الطريق ، ولا ، والله ، ما شاهدت ، هناك ، عسكرياً واحداً » ...

اما انت ، ايها القارىء ، فانه من حقّك ، حينئذ ، أن يصيبك دهش كثير ! اذ انّ هؤلآء ، جماعة الكتّاب ، لا يفشون للناس أسرار صناعتهم ، حتى تدرك ، من فورك ، ما يقال لك ، الآن ، عن أعجب دقائقها !

٢

اُخذت من بعض فصول « ذات العماد » ، وهو كتاب للمؤلف ، لم يتمثل بالطبع ، بعد :

فى الشعر ، خاصة ً .

الشعر ، على الجملة ، هو اغانيُ المرء بذهوله ، وتحيُّر قلبه ، وتردُّد خواطره ، بين يدي هذا الكون العظيم !

انَّ الواحد من شعرآء اهل الدنيا ، لا يعرف اضطراب خواطره ، الاَّ حين يقابلها بانسجام المآء ، فى الغصن ، او بانسجام التَّغريد ، فوق الغصن .

خير الأصوات ، فى العوالم الشعرية ، هو رنَّة الاقلام ، فى الأعماق المجهولة ـ فكأنَّ المعاول ، هناك ، فى حفر ...

البيت ، من الشعر ، هو القناة ، يلوح فيها البحر العظيم ، الذي طالما أجال فيه الشاعر نظره ! ـ وبعبارة أخرى : انَّ المعارف المختزنة ، فى نفسه ، هي التي فيها ينبت أصل هذه الشجرة الشعرية المباركة .

أهل النغم الشعريِّ ليس همُّهم فى هذا التَّرقيص ، الذي يحرِّك الأرجل للخلاعة ، والأعطاف للاهتزاز .

معاني الفرائد تقتضي رأي كتاب اللغة فيها ـ لا رأي صاحب الشعر . فاما صفُّ الفرائد، بعضها الى جانب بعض،

فانه يقتضي رأي كتاب القواعد . ولا يكون على الشاعر ، بعد ذلك ، الا ان يعرف اي شيء يريد ، هو ، ان يقوله ! فان الحدائق ، فى الأصل ، قد قامت على هندسة ، ومقادير ، وخطوط ، ولكنّ الذي يعنيك ، انت ، منها ، هو الفيح ، والظلّ ، والنسيم المنعش ...

الجملة الشعرية، وهي وعاء الخواطر، ومواجيد النفوس، ليست مما يجري بينك وبين خادمك ، من عبارات المحادثة ، على الصّحفة التي انحطمت ، او المفتاح الذي ضاع . ولا هي من عبارات المشعبذين ، واصحاب الرقي ، والعزائم ، والأخذ السحريّ ، التي يلتبس معها الخطاب ، ويفسد التّفاهم .

ليس الشعر لعبة الصبيّ ، اذا بكى ، ولا طعام الرجل ، اذا جاع ، ولا زاد المسافر ، ولا تحفة القادم ـ وليس هو الدراهم ، لمن نفد ماله ... وانما آيته ان يكون زرعاً ، لا يمكن من الفرك .

الشعر حركة ، عبرت فى النفس ، وقد جاء الشاعر ، بعد فوات زمانها ، يصوّرها بهذا الحبر ، الذي به تكتب ، انت ، ايضاً ! فانظر ، يا رعاك الله ، ما اصعب العمل الشعريّ .

المسألة ، فى الشعر ، تصحّ حين لا تفسد كيمياء الألفاظ ! فكأن سرّ الأسرار ، فى هذه الصناعة ، هو وضع اللفظة

موضعها ...

فى المقدّمة ، من هموم الشاعر : صون مملكة الخيال ، من دخول الحقائق عليها ، بالصدور الكاشفة ، والسيقان العارية ! اذ انّ الحقيقة تأتي عريانة من ثيابهـا ، والشعر يلتفُ فى طيلسان .

الشاعر يوفّق ، فى الغالب ، الى قول مـا لا حاجة الى قوله ...

اللّه ، اللّه ، ما اصعب الشعر ، وما اكثر ما ينبغي له ! واتني عرفت ، اليوم ، ايّ شيء كان قرناء الشعراء ، عند العرب . فلا ، والله ، انهم ما زعموا انّ مع كل فحل ، من الشعرآء ، شيطاناً ، يقول الشعر على لسان صاحبه ، الاّ لما رأوا من انه أحمد ، فى هذه الصناعة الصّعبة ، ان يكون لهم معين عليها .

فى الأدب ، على العموم .

الأدب ألهيّة مفيدة ، فهي تجوّد النفس ، وشريفة ، فهي تدور على اجادات الاقلام .

الصبر هو فنّ الأمل — حتى فى الادب ! أفلا ترى كيف يفيض الادب بآلآم الدرس ، على مـا فيه من سليقيّة ، وعطآء خاطر ؟!

في موضوع الأدب ، يجب أن يتناول كل شيء ، حتى قلق البحر ، ومتاعب الزواج ، وسقوط الثلج ، في شهر كانون الثاني ...

اللفظ يكون لتقييد المعاني ، لا لشرحها .

في الفنّ الصحيح يُبعث من خاطر القارىء ، أكثر ممّا يُبعث من خاطر الكاتب .

علاقة الأدب بالعقل ليست أشدّ من علاقته بالحواسّ الخمس .

على الأدب ان يتناول المسائل باطراف أصابعه ـ والاّ خرج ، والعياذ بالله ، الى العلم ! فانّما هو يدور على وصف الحياة ، لا على فضّ مشكلاتها .

أدنى الفنّ ما كانت فيه الجملة تفتّش عن معناها !

الكاتب العظيم انّما هو قارىء عظيم ، ايضاً ...

في الفنّ : يؤثر الايماء الصافي ، على الاسهاب المبهم .

حيْن يقال ، في الفنّ : جمال ، وحقّ ، يجب أن لا يُفهم ، من ذلك ، مثلاً ، جمال الاجياد البيض ، ولا الحقائق المقرّرة ، في العلم الرياضيّ ! فمن ظنّ انّ ليلى ، وقد قامت عليها قصائد المجنون ، هي أخت ، شقّ التمرة ، لهذه اللبنانية الرشيقة ، التي تمرّ بالناس ، في بعض السكك ، في بيروت ، فانما هو قد ظنّ خطأً كثيراً .

فى أقطار الفنّ : يؤخذ نحو الخيال ، من ارض الحقيقة .

اصعب ما فى الفنّ : شعورك انك تسكن فانياً ، وتخلق باقياً !

لو لم يكن من فائدة ، للعقل ، ورآء الشعر والأدب ، الاّ هذه النزهة ، فى الدنياوات ، التي لا وجود لها ، لكفى ...

الكلمات التي تمكث فى مطاوي النفس ، طويلاً ، هي التي تطلع ، فى الورق ، اشدّ لمعاناً ، واكثر اشراقاً .

سرّ الفنّ ، هو فى التأليف بين الفكر المنحجب ، وصورته البادية فى السطر — اذ انّ الطريق ، بين الخاطر والدّواة ، طويلة ، صعبة !

على موضوع القواعد المعيّنة ، فى الفنّ ، قد أُخرجت تلال من الكتب . فاما على موضوع الترتيب الفكريّ ، وهو الميزة العجيبة ، فى هذه الصناعة ، فانه ، الى اليوم ، لم يظهر كتاب ، واحد !

الخوف من الابتداع ، فى الفنّ ، يجب أن تعادله الرّغبة فى الابتداع ...

الكتابة المبهمة ليس عيبها فى كثرة المعاني ، بل فى خلوّها منها .

فى زمن القهقرى ، أي بعد مضيّ عصر المعاني ، يتوكأ الأدب على غموض الألفاظ .

في كل خاطر، يخرج الى النور، لا بدّ من ألم الولادة...

الفنّ نافذة، تطلّ على الحياة ـ نافذة غير عالية . فإيّاك ان تدلّي ساقيك، تمسّ الارض !

على الكاتب أن يفكّر في أشيآء صعبة، ويدير قلمه في اشيآء سهلة ـ فكأنّما في الفنّ لا يُترك كل فنّ !

صناعة الحقّ والجمال، هذه، مقبلة، ولا محالة، على أزمنة عسيرة، يُعنى فيها بالاشيآء المجرّدة، وبالفكر، والسكّر، والحديد، والزّيوت ...

لا بدّ للكاتب، في آخر الأمر، من ان يتطرّق الى مسائل الواقع، والاّ كانت حاله أشبه شيء بالدّوران حول الفريسة، دون الهجوم عليها .

جعل الله لكلّ كاتب شيئاً، ورآء لسانه، يقوله للناس . لكنّه لا يفتأ يعيد فيه ويبدىء، حتى يصبح ذلك الشيء وكأنّما هو اشيآء متعدّدة ...

أصبح أهل الدنيا، من زمانهم، بين ورقة الجريدة، وعلبة الرّاديو، تحت سلطان الاخباريّين من الكتّاب ! لا يستطيع واحدهم، مهما بلغت به الرّزانة، ورجاحة العقل، ان يتفلّت من تأثير الكاتب الاخباريّ عليه . ومن هنا ستقوم قضيّة، اسمها : « قضيّة العلوم والمعلومات » . وكم يكون عجيباً أن يحيط الرجل بكل أزمة تقع في

السياسة ، أو حرب تشتعل ، أو زلزال تقوم قيامته ، ثم ترى صاحبك ، وهو لا يستطيع أن يقف على شيء ، من مسائل نفسه !

جمال الأدب هو في الاحترام ، الذي يبديه ، بين يدي هذا الكون المهيب …

ملحق

فيه صورة بالرّيشة ، وصورة بالقلم •



صاحب « القصر العجيب » ، فى سنة ١٩٣٥ — بريشة المؤلف .

صورة الأمير مجيد ...

وقد نشر بامضاء « مصور » .

الحمد لله على نعمة الحروف ، الحمد لله على الكتابة بالعربية ... اقول هذا ، وقد تناولت قلمي ، للكتابة فى الأمير مجيد ، فاذا انا اتذكر لغة البربائيّة ، لغة العوامّ من المصريّين القدماء ، فى نحو من اربعة آلاف سنة ، قبل العهد بالتأريخ المسيحي . وكانوا اذا ارادوا التعبير بذلك القلم البربائيّ عن القوّة ، مثلاً ، صوّروا اسداً برأس آدميّ ، او عن البرّ بالوالدين صوّروا كركياً ، او عن الحب صوّروا حمامتين ، او عن الأبد صوّروا دائرة — وهكذا الى الآخر .

فيا رعاك الله : أرني برأيك كيف تكون حال صاحبك ، هذا الكاتب ، لو قد رُفعت نعمة الحروف ، ورُدّ الناس الى البربائيّة ، وجاء هو يكتب فى الامير مجيد ، او يكتب

اسم الامير مجيد ، لا غير ! حينئذ ، من لك بمن يعبِّر عن الشاربين الحلزونيَّين فكأنهما قد ثُنِّيا ، حول انبوبة ، عدَّة مرات ، وعن الكوفيَّة والعقال ، وبندقية « موزر » ، وعن الوسط ، والأحزمة ، والحبك ، ووفاض البندق ، وجعاب الأداة والزاد ، وقد غُرِز ، هناك ، المسدَّسان ، والخنجران ، وتدلَّت السلسلتان ، فوق الورك ، وعن الصُّدرة من أدم ، وكأنها الدِّرع من زرد ، تنبطح فوق صدر كالبطن ، فوق بطن كالزقّ ، تجمَّع اسفله ، عند الطيّ والتحنية ، ثم دار حول مدار ، وهبط ... وعن المخصرة من عود السنديان ، وعقبها ، وعن السوط من ذنب الفيل ، وعذبته ، وعن الساقيَّة (وللساقيَّة مهماز ، ايضاً !) وآذان الساقيَّة ، وقد خرجن من تلك الزحمة ، كما يخرج من مصيدتين فئران أربع !

فاما اذا نزل الامير ، في المهرجان الجبليّ ، الى حلقة الرقص « بالدَّبكة » ، وهو ما يزال متحزِّماً بسلاحه ، هكذا ، الاَّ انه قد القى مخصرة السنديان ، واخذ المنديل الحرير الاحمر ، ذا الشراريب ، يلوِّح به في رأس الحلقة ، وطفق يقوم ، او يقعد ، او يهوي ، او يتزحزح شيئاً مَّا ، وجئتَ ، انت ، تحاول ان تعبِّر عن ذلك ، كله ، بالبربائيَّة ، فقلْ على البربائيَّة السلام !

وانه لمن حسن الحظ ّ كون الامير ليس عظيم الأجلاد ، ولا عريض الألواح ، ولا شديد المفاصل والمواصل ، والا ّ كانت الورطة بالبرائيّة اعظم ! اذ ان النسبة ، حينئذ ، تقتضي التعبير عن الساقين ، مثلاً ، بهرمي مصر ، مقلوبين - وههنا ، هاتِ ، يا حجارة الهرم ، فى الصف ّ والارتفاع ، ذراعاً فوق ذراع ، حتى يعيا قلم الكاتب البربائي ّ فى التصوير ، قبل ان تبلغي ، انتِ ، فى الصورة ، بطن الامير ...

وبعد ُ ، فلا يهولنّك ما ترى من صورة صاحبنا ، وهو فى الشكّة التامّة ، مدجّجاً ، قد ثقل عليه السلاح ، حتى عاد لا يطيق الانبساط فى المشي . ولا تظنّن ّ انه « مطبوع على المسدّس » ، كما قال اديب الانكليز ، اوسكار ويلد ، فى ملحة له ، على الاميركيّين ! فانك حين تطرح ، عن الامير مجيد ، هذا البز ّ « الحربي ّ » ، الذي ادخل فيه نفسه ، تكشف لك ، ورآء ذلك ، دعة نفس ، ورقة قلب ، وطيب سريرة ، وحلاوة لسان ، ولين طبع ، وجانب ، الى ظل ّ خفيف ، ونكتة حاضرة ، وظرف يلتمع فى الاحاديث والمطايبات ، كأنه المآء فى ألفاف الغاب ... فتدهش لرجل بلغ من طرآءة الروح ، والبعد عن خواطر الحروب والفتنة ، هذه المبالغ ، حتى ليصح ّ له ان ينشد ، بلسان حاله ، قول

بعضهم :

للحرب قوم ، اضلَّ الله سعيهمُ

اذا دعتهم الى نيرانها وثبوا

ولست منهم ، ولا اهوى فعالهمُ

لا القتل يعجبني منهم، ولا السلبُ

وقول الآخر :

لا أحبُّ الوغى ، ولا انا منه

كلُّ ما يقتل النفوس حرامُ

كيف هو يطلع للناس رجل كرٍّ وفرٍّ ، وضرب بالسيف ، او لزٍّ بالرمح، او صكٍّ بالعصا، او غرز بطرف شيء حديد !!!

ذلك ، وانت تعلم ، ولا ريب ، ان الامير أبعد الرجال عن اذيئة • فهو فى عمره ، حفظه الله ، لم يؤذِ النملة ، ولا ادخل اليتم على المحروسين أطفالها !

ثم انك تعلم ، ايضاً ، انه قد نشأ ، نشأته الاولى ، فى العمل الزراعيِّ ، فى « الغدير » ، من املاك المرحوم والده ، فى الضاحية ، اي عند الحقل الاخضر ، والنسيم الرحيم ، والمحراث الهيِّن الليِّن ، وانه وقد دار الزمن ، وعلت السنُّ بالامير ، قليلاً ، واصبح صدره يتضايق ، فى الأحايين ، بالنيابات ، والوزارات ، والزعامات ، فهو كثيراً ما ينجو بنفسه ، من توهّج المجالس ، ومزاحمة عمّارها ، فيقصد الى

ضيعة « المجيديّة » ـ نعم ! « المجيديّة » ، ولا اقول «الخرويعة»، وهو الاسم الشنيع لما كان قائماً فى موضعها !ـ التي تأثلها ، عند نهايات الحدود ، ناحية فلسطين . وهناك ، أي فى السكينة ، وخلاء القلب ، بين المزارع ، والمباقل ، والمباطخ ، والمقاتي ، يعود الى السجيّة ، التي ركّبها الله فى صدره ، ويردّد قول الشاعر ، طويلاً :

لله بهجة حقلي ، ما يماثلها
فى حسنها السيف مصقولاً ، عليه دمُ

ثم انك تعلم ، فوق ذلك ، ان الامير فى احواله « غير الحربيّة » ، نيّق ، من طبقة رفيعة . فهو يتجوّد فى مطعمه ، وملبسه ، وفى كأسه ، وطاسه ، وما يكون بينهما ، وفى لون الأربة ، وحرير الجورب ، ومنديل الجيب ، فوق عالية الصدر، وفى رشّ الزهر ، بين الماء والجمر، على «الأركيلة»، اذ يحتفل « بالأركيلة » ، فى بعض المنازه ، او على قارعة طريق ، احتفاله المشهود ! ولعمرك ليس ما هنا محلاً للافاضة فى ما يكون ، حينئذ ، من حال الامير ، « وأركيلته » ، فى ذلك الاحتفال « الاميريّ » ، فان الكلام عليه طويل ، والمجال ، الآن ، غير منفسح .

ولكن الامير يردّ عذره ، فى تسربله بالسلاح ، واشتغاله بلفّ الشوارب ، الى باب مخاطبة الناس ، على قدر عقولهم !

فهو يقول ، او كأنه يقول : « تلومون ، وبنو قومنا ، فى ظلّ الجمهورية ، والديموقراطية ، يتخاطبون ، ويتكاتبون « بباشا » ، و « بك » ، و « افندي » ، و « بالعطوفة » ، و « الدولة » ، و « بالمعالي » ، و « السعادة » !.. ثمّ هذه ، لفائف التبغ ، لا تخرجها لهم « ادارة الريجي » الا بالهلال ، والنجم العثمانيّين ، ولا تحمّلها الا الاسماء العثمانية . من « جوكي كلوب » ، و « ينيجه » ، و « خانم » ، و « بافرا » ، و « طاتلي سرت » الى آخر ما هناك . فكأن الفلك فى حران ، لم ينتقل بهؤلاء اللبنانيين من زمن الى زمن ، بل قد تركهم ، فى هذه الدنيا ، على احوالهم ، التي كانوا عليها ! ماذا ؟ أفتريدون ان تكون « ادارة الريجي » أبصر مني بالذّوق العامّ ؟ ام تريدون أن أكون أنا ، وحدي ، أفطن لخطوات الزمن ، وتقلّب الاجتماع الانسانيّ ، فى الايام ، من بني قومنا ، مضمومين معاً فى مجتمعهم ، وجمهوريّتهم ؟! » .

هذا ، ولعلّ للامير مجيد عذراً آخر ، لا يريد ان يطلع هو به ، وان كان يجري فى باب « مخاطبة الناس على قدر عقولهم » احسن مجرى ! اوليس الامير لا يبرح وزيراً للدفاع الوطني ، من اوّل عهد اللبنانيين بهذا الدّور ، الى اليوم ؟ فهو يكاد لا يخرج من دست « الدفاع » الا فى النّدرة . وكيف يصحّ ان يكون وزير الدفاع من غير

قعقعة ، ولا ابّهة ، ولا سحب أذيال !! ـ اي كما يكون مثلاً ، وزير الزراعـة ، او وزير البريد والبرق ، او هذا المسكين ، وزير أبجد هوّز ـ وزير المعارف ؟...

روى لي صديق للامير ، رآه فى بعض الايام ، فى مكتبه ، فى « الدفاع » ، وقد نزع البزّ « الحربيّ » ، ولبس الثوب الفرنجيّ ، وفكّ ما يلفّ من شاربيه ، حتى اصبح كسائر الناس ، من اصحاب الشوارب (كان الامير يومئذ ، ملتاث الصحّة !) . قال : « فكدت ، والله ، لا اعرفه ! ثم قلت له : اين الامير مجيد ، يا هذا ؟.. ففهم ما اردت ، وسرّ بذلك كثيراً » .

بقي أن اذكر للقارىء ان الامير هو فى الوفآء ، والتمسّك ، مضرب المثل ! ولكنك تراه يفي لمن يفي له ، ويتمسّك بمن يتمسّك بـه ـ اي على طريقة ابي الطيّب : « ومن وجد الاحسان قيداً تقيّدا » ـ ومن هنا جآء تعلّق الامير مجيد ، من قديم ، « بالكتلة الدستوريّة » !

وبقي ، ايضاً ، أن ارجو من القارىء أن لا يصدّق مـا يذيعه ، فى كلّ مكان ، صديقنا صاحب « الصحافي التائه » ، من ان الامير مجيداً هو كهؤلآء الغابرين من الامرآء ، من الذين تطنطن الكتب العربية القديمة بانهم كانوا يهتزّون للعطآء ، ويفاجئون بالنوال الواسع ، حتى انهم لو ملكوا

الدنيا ، لفيئحوها في يوم واحد ! فان الاستاذ الرياشي يظنّ ان الامير يرجع نسبه الأرسلاني الأثيل الى رجل الضيف ، حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي . في حين انه يرجع ، كما عليه الاتفاق ، في كتب الانساب ، الى رجل السيف ، المنذر ابن مآء السمآء . ولله الرياشي ! أفيريد لصاحبه ، ان يتكفّل بتراث الانساب ، جميعاً ؟ أفلا يكفيه همّ السيف ، وحده ؟...

فهرس

تمّ طبعه في الرابع عشر ، من شهر حزيران ، سنة
اربع وخمسين وتسعمائة وألف .